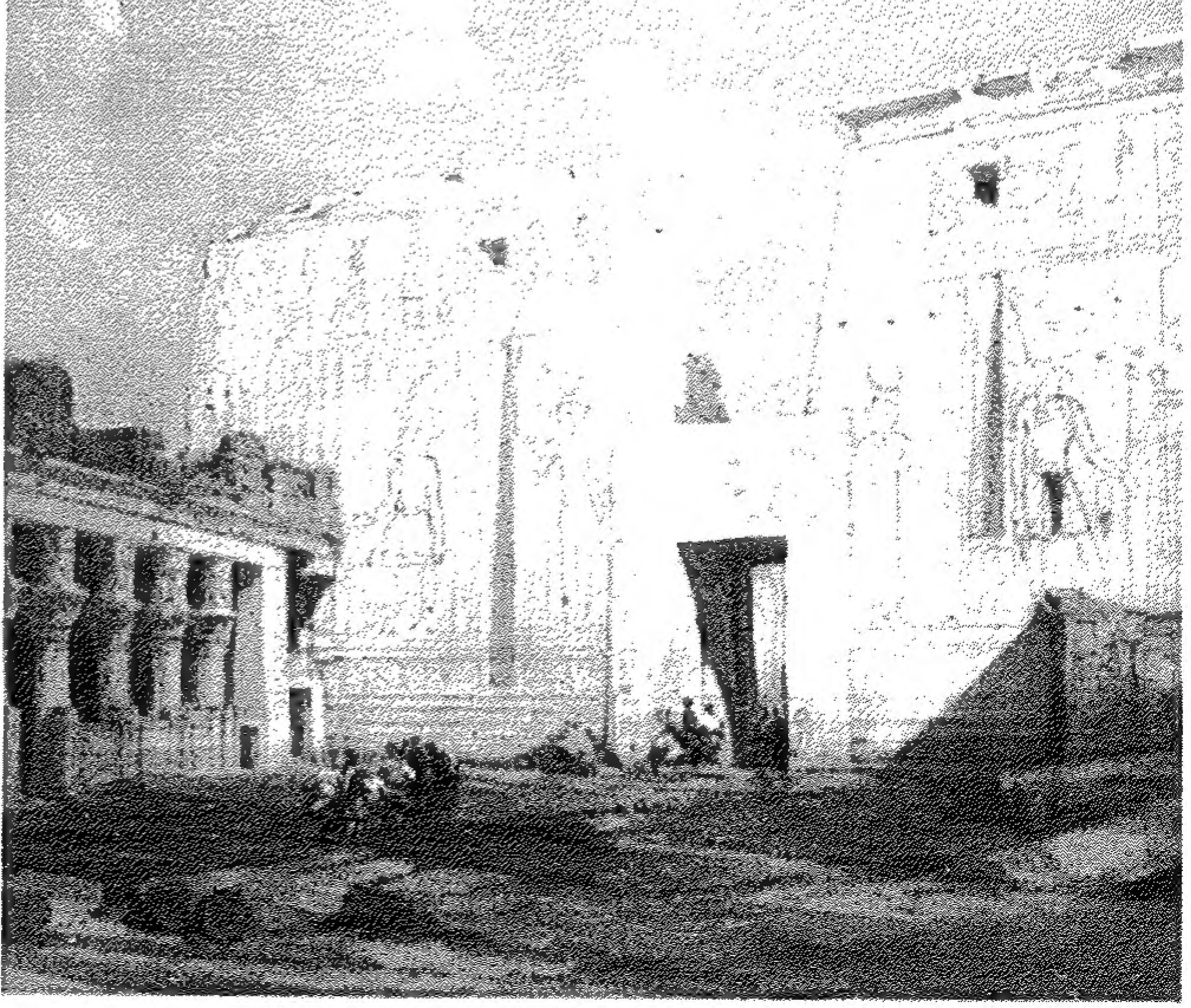
د/ محمد علم الدين الشقيرى

صورة مصر

عند رحالة بلاد المغرب و الأندلس
من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة







منحة 2006

SIDA

السويد

صورة مصر عند رحالة بلاد المغرب والأندلس
من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة

دكتور / محمد علم الدين الشقيرى

صورة مصر عند رحالة بلاد المغرب والأندلس

من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة

المؤلف

دكتور / محمد علم الدين الشقيرى

***

الناشر

دار فرحة للنشر والتوزيع

٢٨ شارع عدنان المالكي – المنيا ت : ٠٨٦/٢٣٦٣٠٧٩

٣٢٠ عمارات العرائس – شارع السودان – المهندسين ٠٢/٣٤٧٤٠١٠

٠١٠١٦٦٨٣٩٩ –٠١٠١٨٨٩٣٦٣ – ٠١٢٣٥٠١٩٧٣

التنفيذ الفني

قسم الاعداد والتنفيذ بدار فرحة للنشر

تصميم الغلاف

كامل جرافيك

***

المشرف العام

عادل متولي

طبعة ٢٠٠٥

رقم الايداع : ٢٠٠٥/٢٥٩٩

الترقيم الدولي : 977-6063-43-0

حقوق الطباعة والنشر محفوظة

الطباعة : دار التيسير للطباعة بالمنيا

دكتور / محمد علم الدين الشقيرى

صورة مصر عند رحالة بلاد المغرب والأندلس

من خلال رحلتي

ابن جبير وابن بطوطة

الناشر

دار فرحة للنشر والتوزيع

صورة مصر عند رحالة بلاد المغرب والأندلس
من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة

تمهيـد :

حظي موضوع الرحلة في الدراسات الأدبية والنقدية بالعديد من المؤلفات التي ألفت منذ منتصف القرن الماضي وحتى الآن، والتي تناولت الرحلة من جوانبها المختلفة، فعرضت لأهميتها وتاريخها ودوافع العرب للرحلة وأنواعها، والظروف التي أحاطت بها وبكتّابها ، ثم مالها من قيم مهمة حرصت بعض كتب الرحلات علي إبرازها، ومن هذه القيم : القيمة العلمية، والقيمة الأدبية، والقيمة التعليمية . (١)

وثمة دوافع كثيرة ومتنوعة كانت وراء احتفال العرب والمسلمين بالرحلة، يرجع بعضها إلى أسباب ذاتية من أهمها : الحج والتجارة وطلب العلم والتفقه في الدين؛ والآخر لأسباب عامة كالجهاد أو نشر الدعوة أو القيام بأعمال تكليفية من قبل الحاكم خدمة للدولة، أو الاطلاع علي أسباب تقدم الشعوب، ومحاولة نقل أساليب حضارتها إلي بلد الرحّال؛ وقد يجتمع أكثر من دافع أو سبب من هذه الأسباب أو غيرها لقيام الرحّال برحلته . (٢)

أما معظم رحلات العرب والمسلمين فكانت تتّجه من المشرق إلى المغرب أو العكس؛ وكان الغرض الديني من أهم أغراض الوافدين من المغاربة والأندلسيين بصفة خاصة في التوجه إلي بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج ، وزيارة المسجد النبوي الشريف؛ ويتلو ذلك العامل العلمي من أجل طلب العلم والإفادة من علوم المشرق .

ومن ثَم فقد تطلع هؤلاء الوافدون إلي الشرق باعتباره الأمل الذي ينشدونه من خلال نظرتين " الأولي : نظرة تقديس علي أنه المكان الذي يحتوي علي الآثار المقدسة والتاريخ المقدس ، فضلاً عن أنه مكان الحج.. والثانية : هي نظرة احترام وتقدير، فالمشرق مهد العلوم الدينية والفقهية والفلسفية واللغوية والشعرية والموسيقية" .[٣]

وقد ترتب علي ذلك تقليد الأندلسيين للمشارقة في معظم مجالات الحياة العلمية، وكان الأندلسيون يعتمدون علي كتب المشارقة في التدريس، ولذلك فقد " كثرت رحلة الأندلسيين في طلب العلم، وكان الواحد منهم يشرُف بين بني قومه حين يروي عن شيوخ مصر وبغداد وغيرها من بلدان المشرق "[٤]

ويذكر المقَّرِي في كتابه " نفح الطيب " عدداً كبيراً من هؤلاء العلماء الراحلين من الأندلس إلي المشرق، والوافدين علي الأندلس من الشرق [٥]، وهم كثير تضيق عن ذكرهم أو التعريف بهم صفحات الكتاب .

وكانت مصر في طريق هؤلاء الوافدين يقطعون المسافة من بلادهم إليها براً أو بحراً، ويمكثون فيها بعض الوقت طلباً للراحة، وتزوداً بالمئونة لإتمام الرحلة، وقد أتاح لهم ذلك التعُّرف علي مصر وأهلها، فرغب بعضهم في الاستقرار بها حتى آخر حياته، كما كان لبعضهم أثر واضح في مجالات الحياة والعقيدة والفكر والأدب، ومن هؤلاء : العالم والمفسِّر الجليل الإمام القرطبي، والإمام " أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافري الشاطبي الصوفي، والزاهد " السيد أحمد البدوي "، والإمام الصوفي " أبو العباس المرسي "، والإمام " أبو حَيان النحوي " وكثير غيرهم من العلماء والفقهاء والصوفية والأدباء.[٦]

وكان من بين هؤلاء الوافدين من المغرب والأندلس أدباء رحالة بهروا بمصر وآثارها ومشاهدها، واستهوتهم طبيعتها، وأحبوا أهلها، وكان لكل منهم رؤيته الخاصة في تناوله لها من خلال رحلته إلي المشرق، وإليهم يرجع الفضل في تحول كتابات الرحَّالة من مجرد مذكرات يومية تسجيلية إلي فن أدبي له سماته وخصائصه الفنية .

ومن أهم هؤلاء الرحالة المغاربة والأندلسيين الذين افتتنوا بمصر وأسهموا في تقديم صورة فنية لها من خلال ما سجلوه عنها في رحلاتهم :

(١) الفقيه أبو بكر محمد بن العربي من إشبيلية (٤٦٨ - ٥٤٣ هـ) في رحلته المسماة بـ " الرحلة " أو "ترتيب الرحلة " . "ووصف رحلته مفقود ، ونقل عنه ابن خلدون والمقري " [٧] ، ويري د. حسني محمود " أنه أول من وضع الأساس لهذا الفن " [٨] لأن الرحلات لم تُدَّون قبله علي هيئة كتب، وإنما علي هيئة مذكرات يومية .

(٢) أبو عبد الله محمد الإدريسي من سبتة، (٤٩٣ - ٥٦٢ هـ) في رحلته " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " ويعده د. شوقي ضيف "أكبر جغرافي بلاد المغرب والأندلس " [٩] .

(٣) أبو حامد الأندلسي (٤٧٤ - ٥٦٤ هـ) وله كتابان في الرحلة وهما "تحفة الأصحاب ونخبة الأعجاب " و "المعرب في عجائب المغرب ".

(٤) ابن جبير من بلنسية (٥٤٠- ٦١٤ هـ) ورحلته " تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار " .

(٥) محيي الدين بن عربي العالم والصوفي الفيلسوف ، من مرسِّية، (٥٦٠- ٦٣٨ هـ) ، وكانت له رحلاته العلمية في داخل الأندلس وسياحاته الدينية والعلمية خارج الأندلس، في المشرق وكان أكثر

اهتمامه بجانب الحج لقاء العلماء ، وقد جاء حديثه عن رحلاته متفرقاً في كتبه [١٠] .

(٦) ابن سعيد الأندلسي من غرناطة (٦١٠- ٦٨٥ هـ) قام برحلته إلي المشرق من أجل الحج ، ووصل الإسكندرية ٦٣٩ هـ ، وتواليفه في ذلك كثيرة منها " المغرب في حلي المغرب " و " المشرق في حلي المشرق " و " عدة المستنجز وعقلة المستوفز " [١١] .

(٧) العبدري من بلنسية ، قام برحلته إلي المشرق ومنها مصر في سنة ٦٨٨ هـ .

(٨) ابن رُشَيد السَّبتي (٧١١ هـ) [١٢] .

(٩) ابن بطوطة وهو الرحالة المغربي المشهور من طنجة(٧٠٣ - ٧٧٩هـ) ورحلته إلي الشرق المسماة " تحفة النظّار في غرائب الأمصار " .

(١٠) البلوى قام برحلته إلي المشرق وزار مصر في القرن الثامن الهجري .

(١١) ابن خلدون تونسي المولد (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ) ، رحل إلي غرناطة في الأندلس ، وقام برحلته في المغرب والمشرق والتي عنونها باسم " التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً " [١٣] .

تحدث هؤلاء جميعاً عن مصر وأقاليمها، ومدنها، وآثارها، ومساجدها، وكنائسها، ونيلها، ومشاهدها الدينية، وتحدثوا عن حكامها

وعلمائها، ومشايخها، وعامة أهلها . والشيء الطبيعي والمؤكد أن حديث هؤلاء الرحالة عن مصر يختلف من واحد لآخر تبعاً لاختلافهم " فيما بينهم في دقة ملاحظتهم، وفي درجة اهتمامهم، وفي نوع هذا الاهتمام، كما يختلفون أيضاً في درجة صدقهم، وأمانتهم، وفي تنوع فهمهم الأمور تحت الظروف التي يخضعون لها " [١٤] .

ومن ثَّم فإن الحديث عن صورة مصر عند هؤلاء الرحَّالة جميعاً، أو عند غيرهم من الرحالة في وقت واحد، يُعَدُّ أمراً بالغ الصعوبة، وذلك لتكرار بعض المشاهد عند الكثير منهم، كما أن هذا الأمر يُعَدُّ عملاً ضخماً، ويحتاج لدراسات عديدة .

وعليه فقد اختارت الدراسة الحديث عن صورة مصر في رحلتي ابن جبير الأندلسي، وابن بطوطة المغربي لاعتبارات عديدة، من أهمها :

() أن هاتين الرحلتين تعدان من أشهر الرحلات الأندلسية والمغربية في الأدب العربي عامة، وأدب الرحلات خاصة.

() أن الحديث عن صورة مصر من خلال هاتين الرحلتين يعد وثيقة مهمة وشهادة حقيقية علي عصرهما، وذلك لما اشتملت عليه كل منهما علي جوانب تاريخية، وحضارية واجتماعية ،ودينية لمصر وأهلها، وما اتصف به صاحب كل رحلة منهما من صفات تتمثل في الصدق، والأمانة في تدوين الرحلة كما يعتمد الدقة في الزمان والمشاهدة الذاتية للمكان المتحدث عنه .

() أنه علي قدر أهمية الرحلتين وشهرتهما، إلا أن معظم الدراسات التي تناولت كتب الرحلة لم تحاول الموازنة بينهما من حيث الدراسة الفنية

لمضمون الرحلة، أو شكلها، تأثيراً وتأثراً أو تفرداً سواء كان فيما يتعلق بالرحلة عامة أو بجزء منها خاصة .

() لم تُفَرد دراسة مستقلة للحديث عن صورة مصر، أو أي جانب من جوانبها في أدب الرحلات، وإنما جاء الحديث عنها دائماً ضمن الدراسة العامة للرحلة .

لهذه الأسباب تحاول هذه الدراسة التعُّرف علي صورة مصر عند رحالة بلاد المغرب والأندلس من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة علي سبيل الموازنة الفنية بين الرحلتين وذلك ما يقتضي معالجته من خلال ما يلي:

- (أ) التعريف برحلتي ابن جبير وابن بطوطة .
- (ب) الخصائص الموضوعية والوصفية للرحلتين .
- (ج) المشاهد الوصفية .
- (د) الخصائص الفنية للشكل في الرحلتين .

هوامش وتعليقات التمهيـــد

(١) تتمثل القيمة العلمية فيما " تحتويه معظم هذه الرحلات علي كثير مــن المعارف الجغرافية، والتاريخية، والاجتماعية، والاقتصادية، وغيرها مما يدونه الرحالة تدوين المعاين فى غالب الأحيان، مـــن جــراء اتصالــه المباشر بالطبيعة وبالناس وبالحياة، وتبدو القيمة الأدبية من خـــلال مـــا تشتمل عليه كتابات الرحَّالة من السمات الأدبية، والنواحى الجمالية التــى تبدو فى اختيار الألفاظ، وجمال التعبير، والاهتمام بالمحسنات البديعيـــة، والاحتفال بالخرافات والأساطير، والاستعانة بالأسلوب القصصي الـــذى يهدف إلى التشويق والمتعة فى عرض أحداث الرحلة، أما القيمة التعليمية فتأتى من حيث إن كتب الرحلات تسهم فى تثقيف القارئ وإثراء فكـــره، وتأملاته عن الآخرين . (حول هذا الموضوع انظر كتاب د. سيد حـــامد النسَّاج بعنوان "رحلة التراث العربي": ص ٢٠٤ ـ٢٠٦) .

(٢) انظر د. ناصر عبد الرازق الموافي: الرحلة فى الأدب العربي حتـــى نهاية القرن الرابع الهجري، ص ٢٦ ـ ٣٠ .

(٣) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، تقديم طلال حرب، المقدمة ص١١ .

(٤) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، ص٣٤ .

(٥) انظر المقرى: نفح الطيب، من رحل من الأندلس إلى بلاد المشـــرق جــ٢ / الباب الخامس ص ٥ ـ ٧٩٩ . ومن هؤلاء وهؤلاء، والوافديـــن على الأندلس من أهل المشرق كان يذكر المقـــري الأعيـــان والشـــعراء والكتاب والأمراء والمغنيين، وغيرهم .

(٦) الإمام القرطبي ولد بقرطبة في العقد الأخير مـــن القـــرن الســـادس الهجري ، وهاجر إلى مصر واستقر في المنيا، وتوفي بها ٦٧١هـــــ ،

والإمام أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافري الشاطبي الصوفي المحدث، من علماء شاطبة بالأندلس، هاجر إلى المشرق، واستقر في الاسكندرية وتوفي بها ٦٧٢ هـ ، و الشيخ الصوفي الزاهد"السيد أحمد البدوي" الذي ولد بفاس ٥٩٦ هـ وهاجر الى مصر وعاش في طنطا وتوفي بها ٦٧٥ هـ ، وكذلك الامام الصوفي أبو العباس المرسي ، ولد بمرسية ٦١٦هـ ، وهاجر إلى مصر وعاش بالإسكندرية الى أن توفي بها ٦٨٥ هـ، والإمام أبو حيان النحوي من مدينة حيان بالأندلس ، ولد٦٥٤هـ بغرناطة ورحل إلى الشرق واستقر بالقاهرة حتى توفي بها ٧٥٤هـ "حول هذا الموضوع راجع الكتاب التذكاري للمؤتمر السنوي (أعلام الصعيد) الذي انعقد بكلية دار العلوم - جامعة المنيا في الفترة من ١٤-١٦ مارس ١٩٩٨ د.محمد زغلول سلام، بحث بعنوان "الوافدون من الأندلس و المغرب إلى مصر والصعيد في زمن القرطبي"،ص ص ٤٩١-٥٠٥ .

(٧) أغناطيوس كراتشكوفسكي . تاريخ الأدب الجغرافي العربي ص٢٥٦.

(٨) د.حسني محمود حسين . أدب الرحلة عند العرب . ص ١٣ .

(٩) د.شوقي ضيف . الرحلات، ص١٩ .

(١٠) لمعرفة رحلات ابن عربي إلى المشرق بالتفصيل راجع أسين بلاثيوس كتاب " ابن عربي حياته ومذهبه، الفصل الثاني بعنوان " أسفاره في المشرق " .

(١١) نقولا زيادة . الجغرافية والرحلات عند العرب، ص ١٦٣ .

(١٢) د. شوقي ضيف . الرحلات . ص ٦٧ .

(١٣) المرجع نفسه .

(١٤) د. حسني محمود . السابق . ص ٦ .

(أ) التعريف بالرحلتين :

(١) رحلة ابن جبير :

يجمع الباحثون علي أن أبا الحسن محمد بن جبير الكناني الملقَّب بابن جبير(١) ، هو الذي أصَّل هذا الجنس الأدبي، الذي أطلق عليه فن الرحلة في أدبنا العربي؛ ويرجع ذلك لما اشتملت عليه رحلته من مقومات فنية جعلت لها الريادة بالنسبة لأدب الرحلات .

وابن جبير ولد ببلنسية سنة ٥٤٠ هـ - ١١٤٥ م(٢)، وهو من أسرة عربية تنتمي إلي جده عبد السلام بن جبير الكناني، أحد الداخلين إلي الأندلس في القرن الثاني الهجري بقيادة القائد الإسلامي "بلج بن عياض "، وقد عاشت أسرته بشاطبة، وفيها تلقي تعليمه الأولي ثم درس العلوم الدينية واللغوية والأدبية علي جماعة من مشايخ شاطبة بالأندلس وعلمائها وفي مقدمتهم والده، كذلك أخذ العلم عن مشايخ بعض البلاد التي ارتحل إليها ومنها مصر؛ وقد هيأه ذلك لأن يكون عالماً فقيها، فضلاً عن أن لسان الدين ابن الخطيب وصفه في الإحاطة بأنه كان " أديباً بارعاً، شاعراً مجيداً ... نظمه فائق، ونثره بديع " (٣)، وقد وصلت شهرته إلي أمير غرناطة " سعيد بن عبد المؤمن" ملك الموحدين، مما أتاح له أن يعين في ديوانه كاتباً لسره،إلي كتّابه.

قام ابن جبير بثلاث رحلات من الأندلس إلي المشرق، وكان قصده فيها جميعاً الحج، وقد بدأ رحلته الأولي راكباً في شوال سنة ٥٧٨ هـ بصحبة صديقه أحمد بن حسان، ومن هناك ركب سفينة إيطالية حتى وصل الإسكندرية، ثم ولّي وجهه إلي القاهرة آخذاً الطريق البري إلي قوص بصعيد مصر، فعيذاب حيث عبر البحر إلي جُدَّه ومنها وصل إلي مكة، فأدي فريضة الحج، ثم زار المدينة المنورة، ومكث بالأراضي الحجازية حوالي ستة أشهر

ثم أزمع العودة إلي وطنه ماراً في طريق عودته بمدن العراق ثم الشام حتى وصل إلي غرناطة في محرم ٥٨١ هـ .

وهذه الرحلة تظهر لنا موهبة ابن جبير الأدبية، ومقدرته الفنية في تسجيل ما شاهده، وهو في طريقه إلي الحج، وأثناء عودته منه، وقد جاء ذلك في شكل مذكرات يومية حرص فيها علي أن يدون كل مشهد شاهده ، وكل مكان نزل فيه باليوم والشهر، ويبدو أنه كتبها في أوراق منفصلة، وتوفي ولم يتم جمعها في كتاب، وقام بعض تلاميذه بجمعها ونشرها بعد وفاته .

وقام ابن جبير بالرحلة الثانية عام ٥٨٥ هـ بعد أن علم بفتح صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس وتخليصه من أيدي الصليبيين، ثم عاد إلي غرناطة ثانية سنة ٥٨٧ هـ، أما الرحلة الثالثة فقد قام بها من سبتة بعد أن توفيت زوجته عاتكة أم المجد بنت الوزير أبي جعفر الوقشي؛ وكان كلفاً بها، فعظم وجده عليها، وعزم علي التوجه إلي مكة، وجاور بها، ثم تركها إلي بيت المقدس ثم مصر، وأخيراً وصل إلي الإسكندرية، واستقر به المقام إلي أن لبَّي نداء ربه ٦١٤ هـ، ودفن بها . ويرجّح أن يكون القبر الملحق بمسجد " سيدي جابر " بالإسكندرية قبره، وأن الناس قد حرَّفوا الاسم من جبير إلي جابر(٤) .

ولم تشتهر من هذه الرحلات الثلاثة إلا رحلته الأولي والتي اختلف في عنوانها فجعله " حاجي خليفة " " رحلة الكناني " نسبة إلي قبيلة ابن جبير العربية الأصل مع أن مخطوط الرحلة يبدأ بعبارة " تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار " وينتهي بعبارة " كتاب اعتبار الناسك في ذكر الآثار والمناسك "، غير أن من نشروها في العصر الحديث من المستشرقين

والعرب آثروا أن يعنونوها باسم " رحلة ابن جبير " وهو ما اشتهرت به بعد ذلك [٥] .

وقد نالت هذه الرحلة اهتمام للدارسين والباحثين – من العرب والمستشرقين – تحقيقاً وترجمة ودراسة [٦]، وذلك لأن صاحب الرحلة " كان دقيق الملاحظة ، صادق التعبير، متنوع الالتفات، وكان العصر الذي قام فيه برحلته؛ عصر الحروب الصليبية، عظيم الأهمية لدي الشرقيين والغربيين المسلمين والمسيحيين ... فكثر الحديث عنها، وكثر الأخذ منها، وعظمت العناية بها"[٧].

(٢) رحلة ابن بطوطة :

أما رحلة ابن بطوطة المسماة " تحفة النظّار في غرائب الأمصار " فتنتسب إلي محمد بن عبد الله بن محمد اللوّاتي الطنجي، الذي اشتهر باسم " ابن بطوطة"[٨] ولد في طنجة بالمغرب (٧٠٣ هـ – ١٣٠٤ م) لأسرة متدينة، اهتم أبوه بتربيته فعلمه القراءة والكتابة، ودرس الفقه والأدب وفنون الشعر، وفي الثاني والعشرين من عمره تاقت نفسه إلي حج بيت الله تعالي، وإتمام تعليمه في المشرق لتحقيق رغبته .

ومن ثّم كان هدف الرحلة هو الحج أولاً، ثم التزوُّد بالعلم والمعرفة ثانياً علي عادة إخوانه المغاربة في رحلاتهم إلي المشرق .

قام ابن بطوطة برحلات ثلاث إلي المشرق، حج فيها أربع مرات، بدأ رحلته الأولي عام ٧٢٥ هـ منطلقاً من طنجة " معتمداً حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام " ووصل إلي شمال أفريقيا، فزار تونس وليبيا حتى وصل إلي الإسكندرية، ومنها إلي

القاهرة، ثم مدن الصعيد، فعيذاب علي البحر الأحمر ثم عاد لخطورة الطريق إلي طريق الشام وفلسطين حتى وصل إلي المدينة، فزار مسجد النبي – صلي الله عليه وسلم – ثم انطلق منها إلي مكة قاصداً بيت الله الحرام فأدي الفريضة ، ثم سافر إلي العراق ومنها إلي إيران ثم رجع إلي مدن العراق ثانية ليصل إلي مكة ليحج للمرة الثانية، ثم انطلق من مكة راكباً البحر ليزور كلاً من اليمن وسواحل إفريقيا الشرقية وعمان والبحرين ثم مكة ليحج المرة الثالثة، ومن مكة زار مصر والشام وشبه جزيرة القرم وتركيا وأفغانستان والصين وبلاد الشام ثم نزل مصر ورحل منها إلي عيذاب، وحج للمرة الرابعة . ثم عزم علي العودة بعد ذلك إلي وطنه فمر بمصر أيضا ودول شمال أفريقيا حتى وصل إلي فارس ٧٥٠ هـ، حيث حظي برعاية السلطان أبي عنان المريني . وكان ابن بطوطة يتولى القضاء في كل بلد ينزل به . كما كانت مصر في طريقه، دائماً في رحلاته من الغرب إلي الشرق ذهاباً وإياباً .

وبعد هذه الرحلة الطويلة بدأ رحلته الثانية القصيرة التي زار خلالها بلاد الأندلس ثم عاد إلي فارس ليقوم برحلته الثالثة مباشرة سنة ٧٥٣ هـ إلي السودان الغربي، وينتقل في إفريقيا ليعود بعدها إلي بلده المغرب بناء علي طلب من السلطان أبي عنان المريني ٧٥٤ هـ والذي كلف ابن بطوطة بأن يملي رحلته علي ابن جزي أحد كتاب الدواوين السلطانية، فكتبها سنة ٧٥٦ هـ ثم أخذ بعد ذلك في تنقيحها وتهذيبها واختصارها كما يقول في تقديمه للرحلة : "متوخياً تنقيح الكلام وتهذيبه ، معتمداً إيضاحه وتقريبه " (٩) وقوله في آخر الرحلة : " انتهي ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبد الله محمد بن بطوطة "(١٠).

وبعد هذه الرحلات الثلاث استقر المقام بابن بطوطة في فارس حيث أمضي بقية حياته، وتوفي سنة ٧٧٩ هـ، ودفن في طنجة مسقط رأسه بالمغرب .

وقد اهتم المستشرقون برحلة ابن بطوطة منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فترجموها إلي عدة لغات " فقد ترجمها دفريمي Defremy ، وسانجونتي Sanguninetti لي الفرنسية في أربعة مجلدات سنة ١٨٥٣ – ١٨٥٩م ونقلها إلي الإنكليزية أحد القسس، ونشر المستشرق الأستاذ Girr ملخصاً لها بالإنكليزية في سلسلة Brodway's Travellers وترجمها منريك Menrick إلي الألمانية كما ترجمت إلي التركية باسم تقويم وقائع ، وترجمت إلي البرتغالية " (١١)، وقد طبعت الرحلة باللغة العربية – بعد تحقيقها ونشرها – عدة مرات في القاهرة وبيروت وبعض الدول العربية الأخرى .

فإذا عدنا إلى رحلتي الرجلين "ابن جبير وابن بطوطة" إلى مصر فسنجد أنهما قد اتفقتا فى أشياء كثيرة تتعلق برحلتيهما من حيث ظروف العصر السياسية، وغرض الرحلة، والوقت الذى مكثه كل منهما فى مصر ومدنها، والمشاهد التى زارها كلاهما؛ كما اختلفا فى أشياء أخرى شاهداها أو وصفاها أو وقعت عليها عينهما .

نود قبل أن نعرض نماذج من الرحلتين تمثل جوانب مختلفة عند الرحالتين أن نسجل بعض الملاحظات العامة التي تمثل أهم ما يميز الرحلتين أو اختلاف خصائص الرحلتين بجانبيها الموضوعي والفني ونلخصها فيما يلي :

**الظروف السياسية :

أن ابن جبير قد زار مصر عام ٥٧٨هـ / ١١٨٣م في فترة من أدق وأحرج الفترات التي مر بها المشرق العربي الإسلامي، وهي فترة الجهاد المقدس ضد الصليبيين بقيادة القائد صلاح الدين الأيوبي(١٢). أما ابن بطوطة الرحالة المغربي فقد زارها عام ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م في فترة الاضطراب السياسي وعدم الاستقرار في المشرق والمغرب وبخاصة بعد الانتصار على الصليبيين في المشرق، وكانت مصر في عهد الملك الناصر قلاوون تعاني من صراع بعض الأمراء على الحكم ومنهم بيبرس وسلار مما اضطره إلى مغادرة مصر والعودة إليها فاتحا بعد التخلص منهما(١٣). مما يعني أن مصر وقت زيارة ابن جبير وابن بطوطة لها لم تكن مستقرة سياسيا في ذلك الوقت.

وكان الهدف من رحلة الرحالين إلى المشرق واحدا وهو الغرض الديني بقصد الحج إلى بيت الله الحرام وزيارة مسجد النبي "صلى الله عليه وسلم"، وأن زيارة مصر ومدنها كان ضمن الرحلة الحجازية لهما. ولم تكن مصر هدفا لذاتها بالنسبة للرحالين ومع ذلك فقد استهوت مصر وحضارتها وأهلها الرحالين إلى الحد الذي اتخذ فيه ابن جبير من الإسكندرية مقاما حتى أخبر

يوم من حياته ودفن بها أما ابن بطوطة فقد قال عنها في رحلته "وهـــي أم البلاد "[١٤] .

استغرقت كل رحلة من الرحلتين إلى مصر حوالي أربعـــة أشـــهر تقريباً، كما أن خط سير الرحلتين يكاد يكون متشابهاً إلى حـــد كبـــير ، وإن اختلفت بعض التفاصيل نظراً لأن رحلة ابن جبير كانت بحرية، ورحلة ابـــن بطوطة كانت برية؛ فالاثنان قد وصلا الإسكندرية فى مستهل رحلتيهما إلـــى مصر ثم انتقلا إلى مدن الوجه البحري، ووصلا إلى القاهرة ثم معظم مـــدن الصعيد الرئيسة حتى وصلا إلى ميناء عيذاب على البحر الأحمر ثم انتقـــلا إلى بلاد الحجاز، وإن وصلها ابن بطوطة عن طريق مـــدن الشـــام نظـــراً لانشغال القائم على جمع الضرائب "سلطان البجاة" بمحاربة الأتـــراك ممـــا اضطره إلى خرق جميع المراكب التى يركب فيها الأتراك وغيرهم .

حفلت كل من الإسكندرية والقاهرة باهتمام خاص، ومساحة أكبر فـــي الحديث عنهما فى رحلتيهما بينما حفلت بعض مدن الوجه البحري والصعيـــد بنصيب أقل وذلك بالقياس لبعض المدن الأخرى التى كان يمر عليها كلاهمـــا مرور الكرام .

ويتفق الرجلان فى رؤية بعض ما شاهداه وما ذكراه فى رحلتيـــهما من مشاهد مصر ومدنها فى الوجه البحري والصعيد من تخطيط عمرانـــي للمدن، ومن آثار فرعونية وقبطية وإسلامية، ومن دور عبادة ومرافق، ومـــا حرصا عليه من مقابلة العلماء والمشايخ والأعيان، وما لقيا من أهل مصـــر من حفاوة وتكريم .

ويختلف الرجلان فى بعض ما شاهداه أيضاً وفى وصـــفهما لـــه أوحكمهما عليه؛ وذلك من خلال الرؤية الخاصة لكل منهما، وحديثهما عنـــه أوتصويرهما له – على نحو ما سنعرض له – فقد اهتم ابن جبير بـــالأرض والعمران والآثار، وكان " يعنى فى وصف المدن بثلاث نـــواح: المرافـــق، والمشاهد، والأرباض وتضم المرافق فـــى خلـــده: الأســـوار، والحصـــون، والمساجد، والمدارس، والحمامات، والميـــاه، والأســـواق، والمارســـتانات، والمنازل، والشوارع، والأبواب، وتضم المشاهد: المقابر، والموالد، وآثـــار الأنبياء والعلماء والأولياء والمواقع الإسلامية، والمعابد والكنـــائس والآثـــار غير الإسلامية وتضم الأرباض الأحياء والضواحي "(١٥) وليس معنى ذلك أنه طبق ذلك على وصفه لكل مدينة من مدن مصر أو غيرها وإنما تناول فـــى كل مدينة ما كان بارزاً من معالمها .

أما ابن بطوطة فقد كان أقل عناية بالأرض والمدن " ولكنـــه كـــان عظيم الاهتمام بالناس وخاصة بالعلماء والأولياء . ومن ثم فالرجل، بالإضافة إلى كونه رحالة من الطبقة الأولى، يمكن اعتباره مؤرخا اجتماعيا للمسلمين فى عصره "(١٦) .

* الجانب الاجتماعـــي :

وفيما يتعلق بهذا الجانب أيضا، ونعني به الجانب الاجتمـــاعي، فقـــد قدمت الرحلتان صورة واضحة عن بعض الجوانـــب الاجتماعيـــة المهمـــة بالنسبة لمصر ومدنها وعادات أهلها وعمرانها، إذ يرى د. حسني محمـــود " أن النجاح الأهم الذى يسجله ابن جبير فى رحلته إنما هو فى مجال الحيـــاة الاجتماعية فهو ينظر دائما إلي أحوال الناس ومستشفياتهم ومدارســـهم "(١٧) وما يذهب إليه الدكتور عثمان موافي من أن " هذا الرحالة قد نقل لنا بصفـــة

عامة صوراً حية وصادقة عن المدن والمجتمعات الإسلامية في المشرق العربي، وعن عادات السكان، وتقاليدهم، ونظمهم الاجتماعية، وذلك في القرن السادس الهجري "[18] .

وقد كانت مصر ومدنها بالفعل تمثل إحدى الصور المهمة لهذه المجتمعات الإسلامية والتي كان تركيز ابن جبير واضحاً فيها علي تصوير علاقات الناس وأحوالهم مع أنفسهم من ناحية ومع تصوير علاقاتهم بالآخر من ناحية أخرى .

وقد ظهر أثر ذلك واضحاً من خلال ما كان " يصدر في وصفه، وتصويره الاجتماعي، عن عاطفة قوية جياشة، على نحو ما يصف، وما يصور سواء كانت هذه العاطفة مبعثها الحب والإعجاب، أم البغض والكراهية "[20] . وتفيض الرحلة بالأمثلة الكثيرة الدالة علي ذلك ومنها : شكوى ابن جبير من سوء معاملة رجال الجمارك له ولأصحابه وللحجيج عامة، وتضجره من سوء معاملة أهل عيذاب للحجيج أيضاً بخاصة ، والإشادة بكل ما قدمه صلاح الدين الأيوبي للمغتربين وبخاصة المغاربة من نفقات، ومأوي وكرم ضيافة، وتخفيف الضرائب الباهظة التي كانت تفرض علي الحجيج، ثم الإشادة بما أقامه صلاح الدين أيضاً من مرافق ومستشفيات وقناطر علي النيل بمصر وفي كل مكان من مدنها .

ومن هذه الصور الاجتماعية التي يقدمها ابن جبير أيضاً حديثه عن نشاط أهل الإسكندرية وعملهم الدؤوب ليل نهار[20] ، وعادة استلام الناس للقبر المبارك بمسجد الإمام الحسين – رضي الله عنه وأرضاه[21] ، وحديثه

عن كرامات بعض الأولياء في زيارته لمشاهد الأئمة العلماء بالإمام الشافعي -رضوان الله عليهم جميعاً - علي نحو ما يتضح عند تقديم ذلك بالتفصيل(٢٢).

وعلي أية حال فإن ابن جبير في رحلته كان لا يركز عدساته علي الطبقة العالية، وإنما كان يستهويه أولئك البسطاء العاديون، ولعل أكبر دليل علي ذلك حديثه الدائم عن أصحابه المغتربين من أهل المغرب، واهتمام صلاح الدين بتقديم كل الرعاية لهم، وحديثه عن أصحابه العاديين في ركوبهم المراكب المكتظة بهم في عيذاب، وليس أدلَّ علي ذلك أيضاً، من أن ابن جبير لم يقدم نفسه لرجال الجمارك بالإسكندرية علي أنه من الشخصيات المهمة في بلده، أو أنه أحد رجال الديوان في غرناطة أو من علية القوم بل أنكر نفسه أو الحديث عن شخصه، وقدَّم صاحبه أحمد حسَّان قبله، بل خضع ابن جبير وصاحبه للتفتيش مثل سائر الناس العاديين، وهو في ذلك غير ابن بطوطة الذي كانت شهرته تسبقه في أي مكان ينزل إليه، كما أنه كان حريصاً علي مقابلة الأعيان دائماً .

وتبدو الحياة الاجتماعية في رحلة ابن بطوطة أصدق ما تكون من خلال اهتمامه العظيم بالناس أكثر من اهتمامه بالأرض أو المدن نفسها أو الجوانب الحضارية بها، فقد نقل رحالتنا إلينا الكثير من أحوال أهل المدن المصرية التي زارها وشاهدها وعاش فيها وتحدث عن عادات هؤلاء الناس وتقاليدهم وملابسهم وأطعمتهم وأشربتهم وهواياتهم واحتفالاتهم واجتماعاتهم، ويرتبط ذلك عنده دائماً بالناحية الدينية أو الصوفية فهو يعرض لزوايا الصوفية أو الخوانق التي يتنافس الأمراء علي بنائها وأن " كل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء ... ومن عوائدهم في الطعام، أنه يأتي خديم الزاوية إلي الفقراء صباحاً فيعين له كل واحد ما يشتهيه من الطعام فإذا اجتمعوا

للأكل جعلوا لكل إنسان خبزة ... لا يشاركه فيه أحد ... ولهم كسوة الشـــتاء وكسوة الصيف ... ومن عوائدهم أن يجلس كل واحد منـــهم علـــي ســـجادة مختصة به، وإذا صلوا الصبح قرأوا سورة الفتح، وسورة الملك وسورة عم، ثم يؤتي بنسخ من القرآن العظيم، مجزأة، فيأخذ كل فقير جزءاً، ويختمـــون القرآن، ويذكرون، ثم يقرأ القراء علي عادة أهل المشرق ... ومن عوائدهـم مع القادم أنه يأتي باب الزاوية فيقف به مشدود الوسط، وعلي كاهله سجادة، وبيمناه العكاز ... ومن عوائدهم أنهم إذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميـع سجاجيدهم فيذهب بها إلي المسجد ويفرشها لهم هنالك ... فإذا فرغـوا مـن الصلاة قرأوا القرآن علي عادتهم، ثم ينصرفون مجتمعين إلي الزاوية ومعهم شيخهم[٢٣] .

ويذكر أن من عادة المصريين في رجب الاحتفال بما يسـمي بـــ " يوم المحمل "، وهو يوم دوران الجمل، وفيه يركب القضاة الأربعة وأعـلام الفقهاء وأرباب الدولة، ويقصدون جميعاً باب القلعـــة دار الملـك النـــاصر، فيخرج إليهم المحمل علي جمل، وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز في تلـك السنة ومعه عسكره والسقاؤون ومعظم طبقات الشعب، ثم يطوفون بالمحمل " فعند ذلك تهيج العزمات وتنبعث الأشواق، وتتحرك البواعـــث، ويلقـي الله تعالي العزيمة علي الحج في قلب من يشاء من عباده، فيأخذون في التـأهب لذلك والاستعداد "[٢٤] .

ويذكر من علماء الإسكندرية قاضيها عماد الدين الكندي " وكان يعتم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم، لم أر في مشارق الأرض ومغاربـها عمامـة أعظم منها . رأيته يوماً قاعداً في صدر محراب، وقد كادت عمامته أن تمـلأ المحراب "[٢٥] .

ورغم إعجاب ابن بطوطة بمدينة المنيا بصعيد مصر، وقوله عنها " وحق حقيقي لها علي بلاد الصعيد التفضيل "[٢٦] إلا أنه استهجن منظراً رآه أثناء زيارته لها، ولأمانته في تسجيل كل ما تذكّره وشاهده، لم يدع هذا المنظر يمر دون أن يسجله ويشير إليه، فقد دخل يوماً الحمامات العامة بها ووجد الناس لا يستترون بهذه الحمامات، فعظم ذلك عليه وأخبر واليها بذلك الذي أظهر اهتمامه الشديد علي نحو ما ينقل لنا ابن بطوطة بقوله " فأمرني ألا أبرح، وأمر بإحضار المكتزين للحمامات، وكتبت عليهم العقود أنه متى دخل أحد الحمام دون مئزر فإنهم يؤاخذون علي ذلك "[٢٧]

ويذكر ابن بطوطة أيضاً من عادات الناس بمدينة ملوي بالمنيا قوله : " وبهذه المدينة إحدى عشرة معصرة للسكر . ومن عوائدهم أنهم لا يمنعون فقيراً من دخول معصرة منها . فيأتي الفقير بالخبزة الحارة فيطرحها في القدر التي يطبخ السكر فيها، ثم يخرجها وقد امتلأت سكراً فينصرف بها "[٢٨] .

* الجانب الاقتصادي :

ويرتبط الجانب الاجتماعي في الرحلتين بالجانب الاقتصادي علي اختلاف بينهما في الاهتمامات والتناول . ففي رحلة ابن جبير يظهر هذا الجانب علي استحياء في الحديث عن نشاط السكان والحالة المادية لهم في تلك الفترة وذلك أثناء حديثه عن عيذاب، فيشير إلي أنهم يعملون في الغوص بحثاً عن اللؤلؤ وبخاصة في شهري يونيه ويوليه إذ يذهب الغواصون بزوارقهم إلي جزائر البحر الأحمر القريبة من عيذاب " ويقيمون فيها الأيام، فيعودون بما قسم الله لكل واحد منهم بحسب حظه من الرزق "[٢٩] . ومنهم من يعيش علي تأجير المراكب للحجاج . " فيجتمع لهم في ذلك مال كثير، في حملهم إلي " جدة " وردهم منها "[٣٠] ومنهم من يقوم بنقل الحجاج في

المراكب لأجل العائد المادي دون مراعاة لأي خلق ديني أو إنساني " وذلك أنهم يشحنون بهم الجلب، حتى يجلس بعضهم علي بعض، وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج المملوءة، يحمل أهلها علي ذلك الحرص والرغبة في الكراء حتى يستوفي صاحب الجلبة منهم ثمنها "[٣١] وأكثر ما يكون حديث ابن جبير عن الجانب الاقتصادي لأية مدينة يزورها من خلال إشارته إلي الأسواق علي الإجمال وليس التفصيل بمعني أنه يشير إشارة موجزة إلي أن مدينة كذا بها أسواق جميلة أو عظيمة أو متسعة .. الخ يذكر ذلك عن مدينة قليوب بقوله " فمن أحسن بلد مررنا عليه موضع يعرف بقليوب ... فيه الأسواق الجميلة "[٣٢] وعن مدينة الجيزة " لها كل يوم أحد سوق من الأسواق العظيمة يجتمع إليها، ويعترض بينها وبين مصر جزيرة، فيها مساكن حسان "[٣٣] ويذكر عن مدينة قوص أيضاً أنها طريق دولي ولذلك فهي " حفيلة الأسواق، متسعة المرافق، كثيرة الحلق، لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين، وتجار أرض الحبشة، لأنها محظر للجميع ... وملتقى الحجاج : المغاربة والمصريين والإسكندريين "[٣٤] .

كما يأتي الحديث عن الناحية الاقتصادية عند ابن جبير في رحلته عند الحديث عن ما قدمه صلاح الدين الأيوبي في مصر من خدمات للمقيمين والغرباء من خلال حديثه عن القرافة، وما أنفقه من مبالغ طائلة علي هذه المرافق وعلي موظفيها من أجور شهرية "وحقق عندنا أن الإجراء علي ذلك كله نيفٌ علي الألف دينار مصرية في الشهر، وهي أربعة آلاف دينار مؤمنية "[٣٥] .

أما الحديث عن الجانب الاقتصادي في رحلة ابن بطوطة فيكون أوضح مما جاء برحلة ابن جبير، إذ يحرص ابن بطوطة في كثير من

الأحيان علي أن يتحدث عن المصدر المالي للبلد الذي يزوره، أو ما تشتهر به من صناعات، أو نواح زراعية، أو ما بها من خيرات ... الخ .

ويذكر من هذه الأمثلة أنه عندما نزل ببلد تسمي " فروجة " من قري الإسكندرية علي رجل من العباد الفضلاء واستضافه ناظر " عمدة " هذه البلدة وسأله عن بلده ومجباه فأجابه ابن بطوطة بأن مجباه نحو إثني عشر ألفاً من دينار الذهب فعجب الرجل وقال له : " رأيت هذه القرية، فإن مجباها إثنان وسبعون ألف دينار ذهباً "(٣٦) ثم يعقب ابن بطوطة علي ذلك بقوله : " وإنما عظمت مجابي ديار مصر لأن جميع أملاكها لبيت المال "(٣٧) مما يدل علي عمق الوازع الديني، عنده، وإيمانه الشديد بأن تقوي الله وأداء ما افترض من زكاة أو صدقة إنما يزيد المال بركة .

وتبدو الحالة الاقتصادية في الرحلة أيضاً عند حديث ابن بطوطة عن مظاهر الخير الوفير في دمياط من تمتعها بمياه النيل، وتوفر الفاكهة بها، وكثرة أغنامها واشتهار أهلها بصناعة الحلوى، فضلاً عن وجود الأسماك التي تصدر إلي الشام وبلاد الروم، والطيور البحرية، والألبان التي لا مثيل في طعمها (٣٨) .

أما بعض البلاد والمدن التي كان لها شهرة في عمل صناعات أو منتجات ذات أثر اقتصادي علي أهلها فكثيرة، منها علي سبيل التمثيل لا الحصر مدينتا بوش ودلاص اللتان يصفهما بأنهما " من أكثر بلاد مصر كتاناً، ومنهما يجلب إلي مصر وأفريقيا(٣٩) ، ومدينة أشمون الرمان نسبت إلي الرمان لكثرته بها(٤٠) ، " ومدينة البهنسا . وهي مدينة كبيرة وبساتينها كثيرة . ويصنع بهذه المدينة ثياب الصوف الجيدة "(٤١) .

وإذا كان بعض العلماء يقيسون ارتفاع مستوي الدخل أو الأسرة في عصرنا بمدي استهلاكهم للكهرباء فإن ابن بطوطة قد قاس ذلك في عصره بالسقاية أو استهلاك أهل البلد للمياه، فمما يذكره عن مصر أن بها " من السقائين علي الجمال اثني عشر ألف سقاء، وأن بها ثلاثين ألف مكار : " سقاء الأرض " وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألف للسلطان والرعية، تمر صاعدة إلي الصعيد "(٤٢) .

وعلى كثرة الخيرات التى تفيض بها مصر إلا أن ابن بطوطة بوصفه مواطناً مغربياً لا تغيب بلده عنه فى كل مكان يزوره، ومن ثمَّ فهو يقارن بين بلده المغرب وخيراتها وبين خيرات مصر والشام من ناحية ورخص أسعارها من ناحية أخرى، فيقول: " ودراهم الغرب صغيرة، وفوائدها كثيرة، وإذا تأملت أسعاره مع أسعار ديار مصر والشام، ظهر لك الحق فى ذلك ولاح فضل بلاد المغرب فأقول إن لحوم الأغنام بديار مصر تباع بحساب ثمان عشرة أوقية بدرهم نقرة، والدرهم نقرة ستة دراهم من دراهم المغرب، وبالمغرب يباع اللحم إذا غلا سعره ثمانية عشرة أوقية بدرهمين، وهما ثلث النقرة، وأما السمن فلا يوجد لمصر فى أكثر الأوقات والذى يستعمله أهل مصر من أنواع الأدام لا يلتفت إليه بالمغرب.. وأما بلاد الشام فالفواكه بها كثيرة، إلا أنها ببلاد المغرب أرخص منها ثمناً.. فإذا تأملت ذلك كله، تبين لك أن بلاد المغرب أرخص البلاد أسعاراً وأكثرها خيرات وأعظمها مرافق وفوائد "(٤٣) .

*** الجانب الديني :**

والحديث عن صورة مصر وارتباطها بالجانب الديني لدى الرحالتين "ابن جبير وابن بطوطة" فى الرحلتين لا يقل أهمية عن الجانبين السالفين

الاجتماعي والاقتصادي، إذ نراه متجلياً في جوانب فضاءات النص الرحلي للرحلتين، ولم يكن ذلك مستغرباً بالنسبة للرجلين اللذين قدما نصا الرحلتين، ولعل ذلك راجع إلي ما اتصف به كلاهما من أمور مشتركة أهمها : التكوين الديني : إذ إن الرجلين قد تربيا تربية دينية أهلّت الأول " ابن جبير " لأن يكون فقيهاً، والآخر " ابن بطوطة " قاضياً، وصدق التوجُّه : فالإثنان قد عزما النية علي القيام برحلتيهما إلي الشرق بدافع للحج، ثم السلوك الشخصي: الذي يبدو من خلال رحلتيهما في تمسكهما الدائم بالجانب الديني، وعدم ارتكابهما شيئاً يسيء إليه .

ولا شك أن هذه الأمور جميعاً كان لها أعمق الأثر علي اهتماماتهما، ونظرتهما للأشياء التي تناولاها بالوصف في رحلتيهما من منظور " الشرع " تحليلاً أو تحريماً من ناحية أو النظر بعين الحُسن والقُبح من ناحية أخرى . فنري ابن جبير بوصفه عالماً فقيهاً يوجّه كل اهتمامه للمساجد وقبور الصحابة والأولياء، ففي القاهرة يقف طويلاً عند بعض المساجد القديمة والمشهورة، يصفها ويصف خطيبها . ويطيل الوقوف عند القرافة، ويفصل الحديث عما فيها من قبور ومشاهد الصحابة والصالحين، ويزور قبر الحسين – رضي الله عنه – ويتعجب من كثرة الطائفين حوله وتقديسهم له ويمنعه حياؤه الديني من أن يعلق علي ذلك بكلمة نقد أو إساءة . لكنه من ناحية أخرى نراه يتذمر كثيراً من جباة الضرائب " رجال الجمارك " أو كما يسميهم " الأمناء "، وهم الذين أساءوا معاملة الحجيج، ومنهم ابن جبير، وتعرضوا لهم وسألوا كل واحد عما لديه لأداء زكاة المال دون أن يبحثوا عما " حالّ عليه الحول أولاً "[٤٤]، وكأن الجانب الفقهي أو الشرعي عنده في المقام الأول، ومقدَّم علي جانب المعاملة له ولأصحابه .

ويلقى الجانب الديني في رحلة ابن بطوطة إلى القاهرة اهتماماً كبيراً حتى يكاد يكون على حساب الجوانب الأخرى السياسية والاجتماعية والاقتصادية أو الحضارية بوجه عام ، ويبدو هذا الجانب من خلال اهتمامه بالشخصيات الدينية وبخاصة الصوفية . في كل بلد يزوره أو يحل فيه ، وقد كانت هذه الشخصيات تستقبله دائماً بكل حفاوة وتكريم " ويبدو أنه كان يستشعر لذة خاصة في ذكر الأشخاص الذين عرفهم وفي التحدث عنهم، وهم بهذا يشغلونه كثيراً حتى لكأن ذكرهم هواية وتبرك"(٤٥)ومن ثم فقد فاضت رحلته بالعديد من الأولياء وشيوخ الطريق ذوي الحكايات والكرامات الصوفية التي يذكرها للأحياء الذين قابلهم او سمع بهم، أو الأموات منهم الذين اشتهروا بكرامات في حياتهم أو بعد مماتهم. ولايعني ذلك أن ابن بطوطة كان متصوفاً أي له مواجيد أو صاحب طريقة أو نظرية في التصوف وإنما كان رجلاً متديناً تديناً معتدلاً لكنه محب لأصحاب الطريق الصوفي ، شغف بذكر حكاياتهم وكراماتهم .

ويتعلق بجانب الكرامات هذه الرؤى والأحلام التي كان يراها ابن بطوطة في نومه، وعندما يستيقظ يفاجأ بأن بعض المشايخ الذين استقبلوه أو ضيّفوه في دارهم يكاشفونه بمارآه، بل ويفسرون له رؤياه (٤٦)

وعلى أية حال فقد اقترب هذا الجانب كثيراً من المعتقدات الشعبية التي عبّرت في مضمونها عن أحد الجوانب الحضارية لمصر واهتمامات أهلها في العصر الذي شهد زيارة ابن بطوطة لها ، وذلك في ضوء ماكان يسود العالم العربي والإسلامي من ظروف حضارية عامة يصفها الدكتور نقولا زيارة . بقوله " كانت حضارة العرب والإسلام قد بدأت بالوقوف عن التقدم نتيجة لعوامل كثيرة اهمها التجميد الرسمي الذي فرضته الدولة على العقل ونشاطه فحصرت الجهد الفكري فيما من شأنه أن يقوي - كيانها بالدين - ويظهر زيغ خصومها ، وهكذا فالحضارة العربية تبدو في صفحات ابن بطوطة قليلة الحركة والنشاط والتوثب . وتطلع علينا وكأنها لاديناميةلها" (٤٧)

وهكذا وفي ضوء تلك الملاحظات والانطباعات التي عرضناها عن الرحلتين يمكننا الحديث عنهما من خلال هذه المشاهد الوصفية لمصر لتتضح لنا صورة مصر عند الرحالتين على سبيل الموازنة بينهما .

(جـ) المشاهد الوصفية :

يمثل الوصف في أدب الرحلة عاملا رئيسا نستطيع من خلاله التعرف علي جانبين مهمين يكونان نسيج النص الرحلي، **الأول**: بما يمثله الرحالة من مكونات نفسية وفنية وثقافية، **والثاني** : بما يسعى إليه النص الرحلي من تقديم الآخر داخل منظومة مجتمعه من خلال ما يتصف به هذا المجتمع من جوانب حياتية مختلفة، ولذلك فهو يعد " من المكونات الأساسية في النص الرحلي، وأساسا في مجال تشكيل الصورة التي تساعد علي فهم آليات رسم صورة الآخر والأنا وتمظهرهما وسط ثقافة، وفي مجتمع له قيمه وأعرافه "(٤٨) .

وقد كان الوصف أهم سمة مميزة لرحلتي ابن جبير وابن بطوطة، وإن اختلف عندهما في طريقة التناول، فقد اتسم وصف ابن جبير " بالدقة والشمول "(٤٩) في كل ما وقعت عليه عينه أو سجله في رحلته؛ دقة في التوقيت وفي تحديد المسافات والمساحات للشيء المشاهد، وفي الإشارة للمكان وصاحبه ثم في التعبير من حيث اختيار الكلمات المعبرة عن أفكاره؛ والشمول أيضا عندما لم يقتصر في وصفه علي جانب معين من جوانب الموصوف بل يصفه من داخله ومن خارجه فإذا تحدث عن موضع أو مدينة من المدن التي مر بها لا يصف شكلها الخارجي فقط " بل يتعمق داخلها، فيصف معالمها وآثارها، ويتحدث عن سكانها، وعاداتهم الاجتماعية، وتقاليدهم ونشاطهم "(٥٠) .

وقد شارك ابن بطوطة ابن جبير في الدقة في الوصف وفي الحديث عن زمن الزيارة أو المسافات والمساحات بالنسبة للأماكن المزارة، وإن اختلفت المقاييس والمساحات بما هو شائع في عصره؛ فهو يذكر الفراسخ

والأذرعة والأشبار أحيانا، لكنه لم يصل في وصفه للأماكن إلي حد التفصيل الذي نراه في وصف ابن جبير لها، وإن كان اهتمامه دائما بتقديم صورة مفصلة للشخصيات التي التقي بها أكثر تفصيلا من ابن جبير أيضا .

وعلينا لكي تتضح لنا صورة مصر من خلال الرحلتين أن نأخذ نماذج من وصفهما لبعض المدن المصرية التي مر بها الرحالتان إلي الحجاز وفي زيارتهما للمشرق . وإن كانت هذه النماذج لا تمثل كل المدن المصرية، وإنما تمثل أهم المدن التي أطال كل من ابن جبير وابن بطوطة الوقوف عندها . مثل الإسكندرية وبعض مدن الوجه البحري، ثم القاهرة وبعض مدن الوجه القبلي .

صورة الإسكندرية في رحلة ابن جبير :

وقد قصدها ابن جبير في أول رحلته مع صديقه أحمد بن حسان، من سبتة في سفينة من أهل جنوة في يوم الخميس التاسع والعشرين من شوال سنة ٥٧٨ هـ، حتى وصل إليها بعد شهر من إبحاره حامدا الله علي بشرى السلامة، وليلتقي بادئ الأمر مع موظفي الميناء أو رجال الجمارك الذين قاموا بتفتيش السفينة تفتيشا دقيقا، وتحروا عن راكبيها تحريا وثيقا، وأخذوا منهم بعض الضرائب، وأساءوا معاملتهم [٥١] .

وقد شكا ابن جبير من ذلك كله مر الشكوى، في الوقت الذي كان من الممكن أن يقدم نفسه وأصحابه إلي هؤلاء الموظفين ليعاملوه معاملة خاصة، لكنه لم يفعل، ومع ذلك لم يحمل السلطان صلاح الدين تبعة ما يحدث ؛ وإنما لورعه وإنصافا للحق نفي أن يكون صلاح الدين حاكم مصر وسلطانها وقائد المسلمين علي علم بذلك كله، لما عرف عنه من تقوي وورع وصفات طيبة أهمها العدل، وإيثار الرفق، ولطالما أشاد به وأبدي إعجابه بأعماله ومناقبه

في كل فرصة يتاح فيها الحديث عنه، يقول ملتمسا العذر لصلاح الدين عما بدر من رجال الجمارك لصحبة رحلته : " وهذه لا محالة من الأمور الملبس فيها علي السلطان الكبير المعروف بصلاح الدين، ولو علم بذلك علي ما يؤثر عنه من العدل، وإيثار الرفق، لأزال ذلك، وكفي المسلمين تلك الخطة الشاقة، واستؤدوا الزكاة علي أجمل الوجوه . وما لقينا ببلاد هذا السلطان ما يلم بتقبيح بعض الذكر سوي هذه الأحدوثة، التي هي من نتائج عمال الدواوين "(٥٢) .

وللدكتور شوقي ضيف رأي له وجاهته بالنسبة لما حدث من رجال الجمارك لابن جبير وصحبته علي المركب، إذ يقول مبررا ما حدث " وغاب عنه (أي ابن جبير) أن مصر حينئذ كانت تحارب الصليبيين، وأنه كان يركب سفينة أوربية من جنوة، هي موضع شك واتهام "(٥٣) .

لكن هذه الأمور العارضة التي حدثت لابن جبير، والتي قد تحدث لغيره في أي زمان لم تؤثر علي الجانب النفسي له في رؤيته للإسكندرية، بل لم تؤثر علي انبهاره بها وتصويره إياها .

وتتجلى صورة الإسكندرية في عينه من خلال إعجابه بموقعها، واتساع مبانيها، وازدحام أسواقها، وبديع منارها، وكثرة مساجدها ومدارسها، وما أعد فيها للغرباء الذين يفدون إليها من مرافق ومنافع وعلاج، ثم ما لاحظه من نشاط أهلها وعملهم الدؤوب ليل نهار .

ولندع ابن جبير يعبر عن ذلك بقلمه في قوله عن موقع البلد واتساعها وقدم مبانيها : " أول ذلك حسن وضع البلد واتساع مبانيه، حتى إنا

ما شاهدنا بلدا أوسع مسالك منه، ولا أعلي مبني، ولا أعتق ولا أحفل منـــه، وأسواقه في نهاية من الاحتفال (الازدحام) أيضا "(٥٤) .

ومما لفت نظره وحاز إعجابه ما رآه في بعض أحياء الإســـكندرية وممراتها من آثار قديمة تتمثل في تلك الأعمدة الرخامية (سواري الرخـام) وما تميزت به من كثرة وعلو واتساع وحسن " حتى إنك تلقي فـــي بعـض الممرات بها سواري يغص الجو بها صعودا لا يدري معناه، ولا لـــم كـان أصل وضعها "(٥٥) وما ذكر له " أنه كان عليها في القديـم مبــان للفلاسـفة خاصة "(٥٦) .

أما أعظم عجائب هذه الآثار، وأجملها في نظره منظــرا، وأعلاهـا قدرا فذلك " المنار الذي قد وضعه الله عز وجل علي يدي من سخره لذلــك آية للمتوسمين، وهداية للمسافرين، لولاه ما اهتدوا فـــي البحـر إلــي بـر الإسكندرية "(٥٧) .

ومع إعجابه الشديد بجمال المنار وروعته، فإن ذلك لا ينســيه دوره بوصفه رحالة، فيأخذ في الحديث عن وصفه من الداخل والخارج وصفا دقيقا في أسلوب يجمع بين دقة العالم ورقة الأديب فبعد أن يتحدث عـــن أهميـة المنار ووظيفته يحدد بعد مسافته عن الإسكندرية، ويصف قدم مبناه، وشـــدة ارتفاعه، ومساحة بعض جوانبه، ويذكر طوله، ويشير إلي المسجد الذي فـــي أعلاه وإلى تبرك الناس بالصلاة فيه . " ويظهر علي أزيد من سبعين ميــلا، ومبناه نهاية العتاقة والوثاقة طولا وعرضا، يزاحم الجو ســموا وارتفاعــا، ينحصر عنه الوصف، وينحسر دونه الطرف، الخبر عنه يضيق، والمشــاهدة له تتسع . ذرعنا أحد جوانبه فألفينا فيه نيفا وخمسين باعا، ويذكــر أن فـــي

طوله أزيد من مئة وخمسين قامة "[٥٨] ثم يتحدث عن اتساعه من الداخل من حيث السلالم والممرات إلي الحد الذي يفوق الوصف " وأما داخله فمرأى هائل واتساع معارج ودواخل، حتى إن المتصرف فيها والوالج في مسالكها ربما ضل وبالجملة فإن أوصافه لا يحصلها القول "[٥٩] .

ومن جمال الآثار والعمران إلي صورة أخري تتمثل في أعمال السلطان، وذلك من باب إرجاع الفضل لأهله إذ نري أن ابن جبير ينسب كل حسن ونعمة في الإسكندرية تعود بالنفع علي أهلها، وعلي زائريها الغرباء - وبصفة خاصة المغاربة - إلي سلطان المسلمين في عصره، وهو " صلاح الدين الأيوبي " الذي ما فتيء يثني عليه ثناء عظيما في رؤيته لكل بلد يحل به، ويخضع لسلطانه . يقول عما أحدثه صلاح الدين بالإسكندرية للغرباء : " ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلي سلطانه : المدارس والمحارس (بيوت الطلاب والزهاد) الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد يفدون من الأقطار النائية، فيلقي كل واحد منهم مسكنا يأوي إليه، ومدرسا يعلمه الفن الذي يريد تعلمه، وإجراء (راتبا) يقوم به في جميع أحواله، واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين، حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متي احتاجوا إلي ذلك، ونصب لهم مارستانا (مستشفي) لعلاج من مرض منهم ....، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء "[٦٠]، أما أهل بلده والمقيمون " ففي نهاية من الترفيه واتساع الأحوال، لا يلزمهم وظيف البته "[٦١] .

ولا يترك ابن جبير الإسكندرية، ومبانيها، ومرافقها دون الحديث عن أهلها الذين كانوا بالنسبة له موضع إعجاب ودهشة وذلك لتميزهم بالعمل " ومن الغريب أيضا في أحوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم

بالنهار في جميع أحوالهم "[٦٢] فضلا عن تميزهم بالعبــــادة أيضـــا إذ تعـــد الإسكندرية من " أكثر بلاد الله مساجد حتى إن تقدير الناس لها يطفف، فمنهم المكثر والمقلل "[٦٣] وهذه المساجد التي قد تصل إلي اثني عشر ألف مســـجدا إنما تكون خدمتها علي حساب السلطان، وهذه من أعماله الحسنة التي هـــي دائما موضع إعجاب ابن جبير . وعلي أية حال ليس ذلك بغريب علي ذلــك الرجل . وهو العالم الفقيه أن يلتفت إلي هذيـــن الجـــانبين، جـــانب العمـــل والعبادة، إذ نراه كثيرا ما يشغل نفسه بالحديث عن المساجد بصفـــة خاصـــة والصلاة فيها وإحصائها . والحديث عن أئمتها وعلمائها .

صورة الإسكندرية في رحلة ابن بطوطة :

بـــدأ ابن بطوطـــة رحلتـــه برا منطلقـــا مـــن مســـقط رأســـه (طنجة) بالمغرب في يوم الخميس الثاني من شهر رجـــب عـــام ســـبعمائة وخمسة وعشرين، ومارا ببعض بلدان المغرب العربي حتـــى وصـــل إلـــي الإسكندرية في أول جمادى الأولي عام سبعمائة وستة وعشرين، حـــامدا الله علي سلامة الوصول، وداعيا لها بحفظ الله وأمنه " ثم وصلنا في أول جمادى الأولي إلي مدينة الإسكندرية حرسها الله "[٦٤]، معبرا عن انبـــهاره بجمـــال مبانيها، وجلال منظرها، وتوسط موقعها بين الشرق والغرب " .. العجيبـــة الشأن الأصلية البنيان، بها ما شئت من تحسين وتحصين ... كرمت مغانيـــها ولطفت معانيها، وجمعت بين الضخامة والإحكـــام مبانيـــها ... والجامعـــة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب "[٦٥] .

وينتقل ابن بطوطة من الحديث عن مدن الإسكندرية إلـــي مداخلـــها البرية والبحرية، فأما البرية فيذكر أن " لمدينة الإسكندرية أربعـــة أبـــواب : باب السدرة وإليه يشرع طريق المغرب، وباب رشيد، وباب البحر، والبـــاب

الأخضر "[٦٦] . وأما البحرية " فلها المرسي العظيم الشأن "[٦٧]، ويعد عنده أجمل مراسي الدنيا التي رآها، ولم ير مثله شبيها إلا ببلاد الهند والأتراك وبلاد الصين، وذلك مما يدل علي دقة وصفه في الموازنة بين الأشياء المتشابهة والمتباعدة في الزمان والمكان .

ويقصد ابن بطوطة بعض أماكن الإسكندرية الأثرية نفسها التي قصدها ابن جبير من قبل، والمتمثلة في منار الإسكندرية وعمود السواري وبعض الأماكن الأخرى، فيتحدث عنها، ويصفها وصفا دقيقا، وإن اختلف في رؤيته للمنار بصفة خاصة عن سابقه من خلال وصفه له في رحلته .

فقد زار ابن بطوطة المنار مرتين الأولي ٧٢٥ هـ، والثانية ٧٥٠هـ، وهو عندما يتحدث عن رؤيته له في المرة الأولي لايأتي حديثه معبرا عن إعجابه به أو انبهاره برؤيته، أو متناولا لأهميته ووظيفته مثلما فعل ابن جبير، بل يأتي حديثه أشبه بتقرير علمي جاف، إذ يتحدث عنه من الخارج فيصف قدم مبناه، وضخامته، وارتفاع بابه، أما من الداخل فيتحدث عن كثرة غرفه، فيقول "قصدت المنار في هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدما . وصفته أنه بناء مربع ذاهب في الهواء، وبابه مرتفع علي الأرض، وإزاء بابه بناء بقدر ارتفاعه ... وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار. وداخل المنار بيوت كثيرة "[٦٨] . ؛ ثم يأخذ في قياس المنار من كل جوانبه قياسا دقيقا بالشبر والفرسخ حسب مقياس عصره . "وعرض الممر بداخله تسعة أشبار وعرض الحائط عشرة أشبار، وعرض المنار من كل جهة من جهاته الأربع مائة وأربعون شبرا . وهو علي تل مرتفع . ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد "[٦٩] .

أما الجديد الذي يضيفه ابن بطوطة في حديثه عن المنار، ولم يـــرد ذكر له في رحلة ابن جبير، هو إشارته العابرة إلي مقبرة الإسكندرية القريبة من البر المتصل بالمنار، دون أن يتحدث عن أية تفصيـلات عنـها تتعلـق بتاريخها، أو ظروف إنشائها، أو أهم المدفونين بها . وينتهي ابن بطوطة من زيارة المنار ووصفه ليصف عجيبة أو غريبة أخرى من غرائب الإسكندرية. وهو عمود السواري، فيتحدث عن موقعه وارتفاعه، وجمال صنعه " ومـــن غرائب هذه المدينة عمود الرخام الهائل الذي بخارجها المسمي عندهم بعمود السواري، وهو متوسط في غابة نخل، وقد امتـــاز عـن شـجراتها سـموا وارتفاعا، وهو قطعة واحدة محكمة النحت،قد أقيم علي قواعد حجارة مربعة، أمثال الدكاكين العظيمة، ولا تعرف كيفية وضعه هنـالك، ولا يتحقـق مـن وضعه "(٧٠) .

وإذا تركنا الحديث عن مداخل الإسكندرية ومبانيـها وآثارهـا إلـي الحديث عن الأشخاص - وهم أكثر اهتمامات ابن بطوطة - ســواء كـانوا أمراء أو سلاطين أو علماء أو قضاة أو متصوفة نجد أن حديثه عن هــؤلاء جميعا قد احتمل مساحة كبيرة من نصيب الحديث عن الزيارة الإسكندرية .

فمن ذكريات رحالتنا ما يرويه عن الحكام أو الساسة بقولـه "وكـان أمير الإسكندرية في عهد وصولي إليها يسمي بصلاح الدين،(وهو بـالطبع غير صلاح الدين الأيوبي سلطان المسلمين) وكان فيها أيضا في ذلك العـهد سلطان إفريقية المخلوع، وهو زكريا أبو يحي بن أحمد بـن أبـي حفـص المعروف باللحياني "(٧١) وهو في إشارته إليها لا يحدثنـا عنـهما أو عـن حكمهما أو أعمالهما أو أية تفصيلات تتعلق بهما كما هو الحال في حديثه عن العلماء والقضاة والمتصوفة علي وجه الخصوص .

علماء الإسكندرية وشيوخها :

ويذكر من علماء الإسكندرية وقضاتها " قاضيها عماد الدين الكندي، إمام من أئمة علم اللسان، وكان يعتم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم ... ومنهم فخر الدين بن الريغي وهو أيضا من القضاة بالإسكندرية، فاضل من أهل العلم ....، ومنهم وجيه الدين الصنهاجي من قضاتها مشتهر بالعلم والفضل."(٧٢)

أما الصوفية وشيوخهم فكانت لهم منزلة خاصة عند ابن بطوطة إذ كان الشغل الشاغل له في كل بلد يصل إليه معرفتهم، ولقاءهم والحديث معهم والاستماع إليهم، والتعلم منهم، وإظهار كراماتهم، وذكر مشايخهم وتلاميذهم، وقد حرص علي أن ينزل كل واحد منهم منزلته عند ذكره أو الحديث عنه؛ وما أكثر هؤلاء الشيوخ الذين ذكرهم في زيارته للإسكندرية، ونقل لنا كل ما عرفه عنهم، ومن بينهم " الشيخ أبو عبد الله الفاسي ، من كبار أولياء الله تعالي يذكر أنه كان يسمع رد السلام عليه إذا سلم من صلاته"(٧٣) ومنهم أيضا شيخ يسمي برهان الدين الأعرج زاره ابن بطوطة، ونزل عنده في ضيافته ثلاث ليال، وأدرك الشيخ أنه يحب السياحة وحياة التجوال، ودار بينهما حوار أظهر كرامة لهذا الشيخ، ونقله لنا من بدايته حينما ابتدره الشيخ بسؤاله قائلا " أراك تحب السياحة والجولان في البلاد ؟ فقلت له : نعم إني أحب ذلك، ولم يكن حينئذ بخاطري التوغل في البلاد القاصية من الهند والصين . فقال : " لابد لك إن شاء الله من زيارة لأخي فريد الدين بالهند، وأخي ركن الدين زكريا بالسند، وأخي برهان الدين بالصين، فإذا بلغتهم فأبلغهم مني السلام " . فعجبت من قوله، وألقي في روعي التوجه إلي تلك البلاد، ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم، وأبلغتهم سلامه "(٧٤).

وهناك شيوخ لم يدركهم ابن بطوطة، وروويت له كراماتـــهم، فقــدم ترجمة موجزة لهم، وقص لنا ما عرف عن أخبارهم وعلمهم وكراماتهم ولـم يكتف بذلك بل قام بزيارة لقبرهم والتبرك بهم، وسجل ما شاهده مكتوبا علـي قبرهم (٧٥) .

أهم أحداثها في عصره :

وتستمر اهتمامات ابن بطوطة بالإسكندرية حتـى بعـد أن يتركـها بزمن، وعند وصوله إلي مكة بالتحديد إذ ينقل لنا ما بلغه من أحداث وقعـت فيها، والظلم الذي حل بها؛ من ذلك تلك المشاجرة الدامية التي وقعـت بيـن المسلمين وتجار النصارى " وكان والي الإسكندرية رجلا يعرف بـالكركي، فذهب إلي حماية الروم . وأمر المسلمين فحضروا بين فصيلي باب المدينـة، وأغلق دونهم الأبواب نكالا لهم . فأنكر النـاس ذلـك وأعظمـوه ... "(٧٦) وتستمر المأساة بعد ذلك إلي حد قتل عدد كبير من المسـلمين بلـغ " سـتة وثلاثين رجلا، وجعلوا كل رجل قطعتين وصلبوهم صفين، وذلك فـي يـوم جمعة، وخرج الناس علي عادتهم بعد الصلاة لزيـارة القبـور، وشـاهدوا مصارع القوم، فعظمت حسرتهم، وتضاعفت أحزانهم "(٧٧).

صورة بعض مدن الوجه البحري في رحلة ابن جبير :

ويترك كل من ابن جبير وابن بطوطة الإسكندرية، وينطلقا منها إلـي القاهرة، أما ابن جبير فقد غادرها في الثامن من ذي الحجة ٥٧٨هـ ليمـر علي بعض المدن والقرى المختلفة التي تجتاز الدلتا أو تخترقها ومن أهمـها البحيرة التي مر بعاصمتها دمنهور، ثم برمة وطندة (طنطا) وسبك ومليجـ

وقليوب والمنية ثم عبر النيل (فرع دمياط) عند دجوة التي انتقل منها إلـــي القاهرة .

" ولم يقف ابن جبير عند أية واحدة من هذه المدن ليصفها في طول "[٧٨] بـل تلتقط عينه علي وجه السرعة أهم ما تمتاز به كل منها من موقع أو اتســـاع عمران أو وجود مسجد أو سوق فيشير إلي ذلك في سطر أو أسطر قلائـــل . فدمنهور " بلد مسور، في بسيط من الأرض أفيح (أوسع) متصــــل مـــن " الإسكندرية " إليه إلي " مصر " والبسيط كله محرث، يعمه النيـــل بفيضـــه، والقرى فيها يمينا وشمالا لا تحصي كثرة "[٧٩] وطنطا تعد أيضا من المـــدن الفسيحة الآهلة بالسكان، يضاف إليها أن " بها مجمعا حفيلا (مسجدا كبيرا)، وخطب الخطيب بخطبة بليغة جامعة " وقليوب يحدد مسافة بعدها عن القاهرة بستة أميال، ويصفها بأنها من أحسن البلاد التي مر عليها وأن فيها " الأسواق الجميلة، ومسجد جامع كبير حفيل البنيان "[٨٠] .

ويصل ابن جبير أخيرا إلي القاهرة العاصمة " وهي مدينة الســـلطان الحفيلة المتسعة "[٨١] ثم منها إلي مصر (الفسطاط) يوم الأربعاء الحـــادي عشر من ذي الحجة، وبعد ثلاثة أيام من قيامه من الإسكندرية .

صورة بعض مدن الوجه البحري في رحلة ابن بطوطة :

ويغادر ابن بطوطة الإسكندرية إلي القاهرة، ولكنه لا يذهـــب إليـــها مباشرة، وإنما يمر في طريقه علي بعض قري، ومدن الوجه البحري، فيمـــر علي منية بني مرشد، ودمنهور، وفوه، والنحرارية وأبيار، والمحلة الكـبرى، والبرلس، وبلطيم، ودمياط، وفارسكور، وأشمون، وسمنود التي يركب النيـــل منها إلي القاهرة .

ولم يقف رحالتنا عند أية واحدة من هذه القرى أو المدن وقفة طويلة ليصفها كما وصف الإسكندرية، أو كما سيصف القاهرة، وإنما كانت وقفة عابرة مثل ابن جبير، وإن كانت أكثر تفصيلا بعض الشيء منه؛ فقد أُكتفي بالحديث عن كل منها بالإشارة إلي الموقع أو الاتساع أو الأسواق أو الفضلة والعلماء، وأحيانا إلي معلومة أو طرفة أو تجربة خاصة تتعلق بزيارته لأي منها؛ غير أن أهم ما كان يشغله هو زيارة المشايخ والصوفية وزوايا الصالحين والزهاد كما قدمنا .

ومن ثم فقبل رحيله عن الإسكندرية وفي طريقه إلي القاهرة سمع بالشيخ الصالح العابد أبي عبد الله المرشدي ببلدة " فوه " بالقرب من رشيد فقصده بعد مروره بمدينة دمنهور التي يصفها بقوله " وهي مدينة كبيرة، جبايتها كثيرة، ومحاسنها أثيرة، أم مدن البحيرة بأسرها "[٨٣] ، إلي أن وصل إلي زاوية الشيخ بفوه فاستقبله وأكرم وفادته، وبات علي سطح زاويته، فرأي في منامه أنه علي جناح طائر عظيم يطير في سمت القبلة يتيامن، ثم يشرق، ثم يذهب في ناحية الجنوب، ثم يبعد الطيران في ناحية الشرق، وينزل في أرض مظلمة خضراء، ويتركه بها، وقص رؤياه علي الشيخ، وسأله تأويلها. فقال له : سوف تحج وتزور النبي صلي الله عليه وسلم وتجول في بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وبلاد الهند، وتبقي بها مدة طويلة . [٨٣]

ومن المدن التي مر عليها مدينة (أبيار) التي يصفها بقوله " وهي قديمة البناء، أرِجَة الأرجاء، كثيرة المساجد، ذات حسن زائد، وهي بمقربة من النحرارية، ويفصل بينها النيل، وتصنع بأبيار ثياب حسان تعلو قيمتها بالشام والعراق ومصر، وغيرها "[٨٥] . ثم يصف اجتماع أهل هذه المدينة مع قاضيهم يوم الركبة أو يوم رؤية هلال رمضان في مكان مرتفع خارج

المدينة لاستطلاع الهلال بقوله : " إذا تكاملوا هنالك ركب القاضي وركب من معه أجمعين، وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان، وينتهون إلي موضع مرتفع خارج المدينة، وهو مرتقب الهلال عندهم، وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش، فينزل فيه القاضي ومن معه، فيرتقبون الهلال ثم يعودون إلي المدينة بعد صلاة المغرب، وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس . ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع . ويصل الناس مع القاضي إلي داره . ثم ينصرفون "[٨٥] ويصل إلي مدينة المحلة الكبرى التي يصفها بقلمه بأنها " جليلة المقدار، حسنة الآثار، كثير أهلها، جامع بالمحاسن شملها، واسمها بين "[٨٦] .

وحظيت دمياط بوقفة أطول من حديث ابن بطوطة عن القرى والمدن الواقعة علي الطريق إلي القاهرة، وقد كان إعجابه بها واضحا، واستحسانه لها بينا، فتحدث عن جوانب عديدة لها أشار فيها إلي اتساعها وتنوع ثمارها، ووقوعها علي النيل، ثم اختلاف الناس حول موقعها " والناس يضبطون اسمها بإعجام الذال، وكذلك ضبطه الإمام عبد المؤمن خلف الدمياطي إمام المحدثين يضبطها بإهمال الدال . ويتبع ذلك بأن يقول خلاف الرشاطي وغيره، وهو أعرف بضبط اسم بلده "[٨٧] .

أما الطريف حقا بالنسبة لهذه البلدة أنه كان لها " تأشيرة خروج – بأصطلاحنا المعاصر – لكل من يمر بها " وإذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلي الخروج عنها إلا بطابع الوالي . فمن كان من الناس معتبرا طبع له في قطعة كاغد يتظهر به لحراس بابها . وغيرهم يطبع علي ذراعه فيستظهر به "[٨٨] ولعل ذلك يمثل سبقا لنظم دخول البلاد والخروج منها، ولم نعهد مثل هذا في رحلة ابن بطوطة لمدن مصر الأخرى، ولم نعهده أيضا في رحلة ابن جبير.

وما يعرف الآن عن تميز دمياط بالخير الوفير في أرضها ومائها وشهرة أهلها بصناعة الحلوى، فإننا نجده من زمن ابن بطوطة إذ يذكر ذلك بقوله : " وشجر الموز بها كثير يحمل ثمره إلي مصر في المراكب، وغنمها سائحة هملا بالليل والنهار، ولهذا يقال في دمياط سورها حلوى وكلابها غنم... والطير البحري بهذه المدينة كثير متناهي السمن، وبها الألبان الجاموسية التي لا مثيل لها في عذوبة الطعم، وطيب المذاق . وبها الحوت البوري يحمل منها إلي الشام، وبلاد الروم، ومصر "(٨٩) .

ولا يترك ابن بطوطة دمياط دون أن يزور مشايخها ومتصوفيها وزواياهم، ويحكي كراماتهم من ذلك زيارته لزاوية " الشيخ جمال الدين الساوي قدوة الطائفة المعروفة بالقلندرية . وهم الذين يحلقون لحاهم وحواجبهم "(٩٠) ، وهو يقص قصة طريفة لهذا الشيخ تدل على ورعه، وتظهر كرامته، وتبين السبب الذي من أجله حلق لحيته يقول في مستهلها " أنه كان جميل الصورة حسن الوجه، فعلقت به امرأة من أهل ساوة، وكانت تراسله وتعارضه في الطريق وتدعوه لنفسها، وهو يمتنع ويتهاون ..."(٩١) ومن دمياط يسافر ابن بطوطة إلي مدينة فارسكور فمدينة أشمون إلي أن يصل إلي مدينة سمنود التي ركب منها النيل إلي مصر .

مشاهد القاهرة ومزاراتها :

وصل كل من ابن جبير وابن بطوطة إلي القاهرة، فانبهرا بجمالها، وتجلت صورتها المشرقة في نظرهما، والتي بدت لوحاتها في مشاهدها، وآثارها، وعمرانها، وقد جاءت زيارة ابن بطوطة لها بعد زيارة ابن جبير بما يقرب من قرن من الزمان ونيف .

" ولكون ابن جبير عالما فقيها يولي المساجد، وقبور الصحابة والأولياء جل عنايته واهتمامه "[٩٢] فقد كان أهم ما استوقفه في زيارته العابرة للقاهرة – والتي لم تتجاوز الخمسة والعشرين يوما – من المشاهد والآثار والعمران : المشهد الحسيني، وبعض مشاهد الصحابة والتابعين، والأئمة والعلماء، والتي وصفها ووقف طويلا عند بعضها، فضلا عن وصفه للقلعة والمارستان والأهرام وأبي الهول، ومدينة الجيزة، وجزيرة الروضة؛ ومع إعجابه بهذه الأشياء وانبهاره بها ووصفها وصفا فنيا دقيقا، فقد كانت تصاحبه نظرة الإعجاب الشديد بأعمال السلطان صلاح الدين الأيوبي في القاهرة، فأشاد بها، وتحدث عنها وأرجع الفضل فيها لأهله . كما سبق الحديث له عنها في الإسكندرية .

أما ابن بطوطة فقد استهوته مدينة القاهرة نفسها، فتجلي في وصفها، وتحدث عن مساجدها، ولاسيما مسجد عمرو بن العاص، واندهش لكثرة مدارسها، ومحاسن مستشفاها وأطال الحديث عن زواياها ومرتادي هذه الزوايا، والقرافة وزوارها؛ أما النيل فكان له حديث خاص عنه، وتميزه علي أنهار الدنيا، والأهرام التي هي من عجائب الدهر ومعجزة بنائها، وكان جل اهتمامه الخاص بالناس في القاهرة علي مختلف رتبهم وطبقاتهم : السلاطين أو الأمراء، والقضاة والعلماء، والأعيان، وعامة أفراد الشعب .

ومن الملاحظ أن ابن بطوطة قد اختلفت رؤيته فيما شاهده من مشاهد القاهرة، وآثارها ومعالمها ورجالها عن ابن جبير، كذلك لم يتفقا أيضا في الحديث عن شيء منها إلا في الحديث عن الأهرام أو بعض المزارات الشريفة؛ وغير ذلك قد نجد إشارات عابرة لكليهما لبعض المعالم القاهرية .

ولكثرة هذه الصور، وتعدد رؤاها، ولطول تفصيلاتـــها يمكننـا أن نعرض لبعضها والتي التقطتها حدقة كل منهما لنقف علي أهم تفصيلاتها عند كل منهما أو عندهما معا . ومن ذلك .

صورة مشهد رأس الحسين في رحلة ابن جبير :

وهو أول ما يذكره ابن جبير في رحلته للقـــاهرة ضمـــن المشــاهد والآثار، ويشير إلي أن المدفون بالمشهد هو رأس الحسين فقط – رضوان الله عليه – وليس الجسد ككل، ثم يأخذ في وصف التابوت، والبناء المبني عليــه، وصفا يدل علي القدسية والانبهار، ليس بهما فقط، وإنما بالمكان الذي يوجـد فيه المشهد، وما فيه من أنوار وأعمدة ومداخل وزينات وأســتار وأحجــار، ومرايا، أما الشيء الذي أدهشه، وملك عليه مشاعره فـــهو طـواف النــاس بالمشهد الحسيني، وتوسلهم إلي الله ببركته في قضاء حوائجهم، وهو يصفــه علي هذا النحو قائلا : " أول ما نبدأ بذكره ... المشهد العظيم الشـــأن الــذي بمدينة القاهرة، حيث رأس الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنــهما، وهو في تابوت فضة مدفون تحت الأرض، قد بني عليه بنيان حفيل، يقصــر الوصف عنه، ولا يحيط الإدراك به، مجلل بأنواع الديباج، محفوف بأمثـــال العمد الكبار شمعا أبيض، ومنه ما هو دون ذلك . قد وضع أكثرها في أتـوار (آنية) فضة خالصة، ومنها مذهبة، وعلقت عليه قناديل فضة، وحف أعـلاه كله بأمثال التفافيح (الكرات) ذهبا، في مصنع (بناء) شبيه الروضة، يقيــد الأبصار حسنا وجمالا، فيه من أنواع الرخام المجزع، الغريب الصنعة البديع الترصيع، ما لا يتخيله المتخيلون، ولا يلحــق أدنـــي وصفــه الواصفــون. والمدخل إلي هذه الروضة علي مسجد، علي مثالها في التأنق والغرابـــة ... وعلي يمين الروضة المذكورة وشمالها بيتان من كليهما المدخل إليه . وهمــا

أيضا علي تلك الصفة بعينها، والأشياء البديعة الصنعة من الديباج معلقة علي الجميع "[٩٣] ثم يقول : "وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك، وإحداقهم به، وانكبابهم عليه، وتمسحهم بالكسوة التي عليه، وطوافهم حوله مزدحمين باكين متوسلين إلي الله سبحانه ببركة التربة المقدسة، ومتضرعين ما يذيب الأكباد، ويصدع الجماد ... وبالجملة فما أظن في الوجود كله مصنعا أحفل منه ولا مرأى من البناء أعجب ولا أبدع "[٩٤] .

صورة مشهد رأس الحسين في رحلة ابن بطوطة :

أما ابن بطوطة فقد مر علي المشهد مرورا سريعا، وقد تأثر في ذلك بما أشار إليه ابن جبير في وصفه قائلا : " ومن المزارات الشريفة المشهد المقدس العظيم الشأن حيث رأس الحسين بن علي عليهما السلام، وعليه رباط ضخم عجيب البناء علي أبوابه، وحلق الفضة وصفائحها أيضا كذلك، وهو موفى الحق من الإجلال والتعظيم"[٩٥] .

ومن الملاحظ أن ابن بطوطة قد اكتفي بالإشارة إلي أن المدفون بالمقبرة أو المشهد هو رأس الحسين فقط، وليس الجسد بكامله، كما أشار ابن جبير أما البناء وما امتاز به من مهارة فنية في الصنعة والإتقان والجمال أو المدخل الذي بجواره أو الزوار الذين يطوفون بالمشهد متوسلين ببركته، كل ذلك لم يعرض له ابن بطوطة علي نحو ما عرض له ابن جبير في رحلته .

صورة الأهرام في رحلة ابن جبير :

يزور ابن جبير الأهرام، ويذهل لرؤيتها، ويتحدث عن قدمها، وبنائها المعجز، ومنظرها الغريب، وشكلها المربع، ويخص بالذكر منها الهرمين الكبيرين المتجاورين " خوفو " و " خفرع " فيصف ارتفاعهما الشاهق،

ومساحتهما الكبيرة؛ كما يعجب بطريقة بناء هذه الأهرام، والصخور الصلبة التي بنيت منها، وصعوبة الصعود إلي قمتها أو محاولة هدمها، ويتحدث عن مداخلها والأساطير التي قيلت في شأنها فيقول عنها : " الأهرام القديمة، المعجزة البناء، الغريبة المنظر، المربعة الشكل، كأنها القباب المضروبة، قد قامت في جو السماء، ولاسيما الاثنان منها، فإنهما يغص الجو بهما سموا، في سعة الواحد منها من أحد أركانه إلي الركن الثاني، ثلاث مئة خطوة وست وستون خطوة، قد أقيمت من الصخور المنحوتة، وركبت تركيبا هائلا، بديع الإلصاق، دون أن يتخللها ما يعين علي إلصاقها، محددة الأطراف في رأي العين وربما أمكن الصعود إليها علي خطر ومشقة، فتلفي أطرافها المحددة كأوسع ما يكون من الرحاب لو رام أهل الأرض نقض بنائها لأعجزهم ذلك . للناس في أمرها اختلاف : فمنهم من يجعلها قبورا لعاد ونبيه ومنهم من يزعم غير ذلك "(٩٦) .

ويصف تمثال أبي الهول القريب منها وصورته الغريبة فيقول "وعلي مقربة من هذه الأهرام بمقدار غلوة صورة غريبة من حجر قد قام كالصومعة، علي صفة آدمي هائل المنظر وجهه إلي الأهرام، وظهره إلي القبلة مهبط النيل ويعرف " بأبي الهول "(٩٧) .

صورة الأهرام في رحلة ابن بطوطة :

ويأتى الحديث عن الأهرام فى رحلة ابن بطوطة، والتماثيل التى بجوارها، والتى يسميها البرابى مرتبطا بالأساطير التى يتناقلها الناس، والتى ترجع أولية بناء الأهرام إلى روايتين؛ الأولى: تحكى أن النبي إدريس عليه السلام حين أنذر الناس بالطوفان خاف على العلوم والصنائع أو الحرف من الضياع فبنى الأهرام، لتكون مستودعا للعلوم، والأخرى تزعم أن بعض

ملوك مصر رأى رؤيا قبل الطوفان أفزعته وجاء تأويله لها ببناء الأهــــرام لتحفظ العلوم وأجساد الملوك، وقد أورد ذلك بقوله: "الأهرام والــبرابى مــن العجائب المذكورة، وللناس فيها كلام كثير، وخوض فى شأنها وأولية بنائها . ويزعمون أن العلوم التى ظهرت قبل الطوفان أخـــذت مـــن هرمـــس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى، ويسمى الخنوج، وهو إدريس عليـــه الســـلام، وإنه أول من تكلم فى الحركات الفلكية، والجواهر العلوية، وأول مـــن بنـــى الهياكل ومجد الله تعالى، وفيها أنه أنذر الناس بالطوفان، وخاف ذهاب العلم، ودروس الصنائع فبنى الأهرام والبرابى، وصـــور فيـــها جميـــع الصنـــائع والآلات، ورسم العلوم فيها لتبقى مخلدة "[٩٨] ثم يقول عن الرواية الأخـــرى والتى تتعلق بالرؤيا " ومما يذكر فى شأنها أن ملكا من ملوك مصـــر قبـــل الطوفان رأى رؤيا هالته، وأوجبت عنده أنه بنى تلك الأهرام بالجانب الغربي من النيل، لتكون مستودعا للعلوم ولجثث الملوك، وأنه سأل المنجميـــن هـــل يفتح منها موضع، فأخبروه أنها تفتح من الجانب الشمالي، وعينوا له الموضع الذى تفتح منه، ومبلغ الإنفاق في فتحه، فأمر أن يجعل بذلك الموضـــع مـــن المال قدر ما أخبروه أنه ينفق في فتحه . واشتد في البناء فأتمه فـــي ســـتين سنة، وكتب عليها: " بنينا هذه الأهرام في ستين سنة فليهدمها من يريد ذلـــك في ستمائة سنة، فإن الهدم أيسر من البقاء "[٩٩] .

وحتى تكتمل الأسطورة، فإن ابن بطوطة يكمل القصة بما يفيـــد أن نبوءة المنجمين قد تحققت بالفعل، وذلك حينما يذكر أنه عندما تولي عبـــد الله بن هارون الرشيد أمير المؤمنين وسابع الخلفاء العباسيين، أراد هذا الخليفـــة هدم الأهرام، فأشار عليه بعض المشايخ بعدم الهدم، ولكنه لم يســـتمع لـــهم، وأمر أن تفتح من الجانب الشرقي، وبذل عماله كل ما يستطيعون من طـــرق

في فتحها حتى فتحوا فتحة بقيت إلي عصره، ووجد هؤلاء العمال بإزاء النقب مالا، وحينئذ أمر الخليفة بوزنه، وأحصي ما أنفق في فتح النقب فوجدهما متساويين .

وهكذا تتحول معجزة بناء الأهرام عند ابن بطوطة إلي تفسير أسطوري ضارب بجذوره فى أعماق التاريخ، أما المشاهدة العلمية أو الرؤية الفنية للأهرام فلا نكاد نلمس ذلك، اللهم إلا وصفا باهتا للشكل الخارجي فقط فالأهرام "بناء بالحجر الصلد المنحوت متناهى السمو، مستدير، متسع الأسفل، ضيق الأعلى، كالشكل المخروط، ولا أبواب لها، ولا تعلم كيفية بنائها"[١٠٠] .

وهكذا جاء وصف ابن بطوطة للشكل الخارجي فقط للأهرامات وصفا مقتضبا، ومختلفا كثيرا عن وصف ابن جبير لها والذى يعد أكثر تفصيلا منه، على نحو ما أشرنا إليه من قبل .

وغير هاتين الصورتين اللتين عرض لهما كل من ابن جبير وابن بطوطة، فقد كانت هناك بعض الصور الأخرى التى تفرد بوصفها كل منهما فى رحلته، وتصويرها دون الآخر، والتى تظهرنا مدى اهتمامهما بأهم الأشياء التى لفتت أنظارهما .

ومن أهم هذه الصور التى التقطتها عين ابن جبير للقاهرة، والتى عبر عنها قلمه نختار صورتين من هذه الصور، وهما: صورة خطيب أحد المساجد التى صلى فيها الجمعة، والثانية صورة صلاح الدين وأعماله التى عمت جميع أنحاء مصر .

صورة خطيب الجمعة في رحلة ابن جبير :

يذكر ابن جبير أنه قد صلى الجمعة فى أحد جوامـــع القــاهرة، وأن الخطيب خطيب المسجد قد نهج فى خطبته منهجا سنيا، جمع فيه بين الدعــاء للصحابة – رضوان الله عليهم – والتابعين ولأمهات المؤمنين زوجات النبـــي "صلى الله عليه وسلم" ولعميه الكريمين حمزة والعباس وللحســـن والحســين رضى الله عنهم، ثم أخذ الخطيب بعد ذلك بمجامع قلوب المصلين بما ألقـــاه من خطبة بليغة جمعت بين فصاحة الكلمة ولطف الوعظ، ورهافة الأسـلوب، فخشعت القلوب القاسية، وتفجرت العيون الجامدة .

ثم يأتى تركيز ابن جبير على صورة خطيب المسجد والتى تشى كلها بصورته الدينية والرسمية فيتحدث عن زيه أو لباسه، وهيئته، ومظاهر إلقائه الخطبة، ثم حرصه على الدعاء للخلفاء العباسيين فيقول عنه "ويأتى(للخطبـة) لابسا السواد على رسم العباسية – ووصفه لباسه – بــردة ســوداء، عليــها طيلسان شرب أسود، وهو الذى يسمى بالمغرب الإحرام، وعمامة ســـوداء، متقلدا سيفا . وعند صعوده المنبر يضرب بنعل سيفه المنبر، فى أول ارتقائه، ضربة يسمع بها الحاضرون، كأنها إيذان بالإنصات، وفى توسطه أخـــرى، وفى انتهاء صعوده ثالثة، ثم يسلم على الحاضرين يمينا وشمالا، ويقف بيــن رايتين سوداوين، فيهما تجزيع بياض، قد ركزتا فى أعلى المنبر . ودعـــاؤه فى هذا التاريخ للإمام العباسي أحمد الناصر لدين الله بن الإمام أبى محمــــد الحسن المستضئ بالله بن الإمام أبى المظفر يوسف المستنجد بالله، ثم لمحيى دولته أبى المظفر يوسف (بن أيوب صلاح) الدين، ثم لأخيه ولى عهده أبـــى بكر سيف الدين"[١٠١] .

وإذا كان ابن جبير قد قدم لنا هذه الصورة لخطيب الجمعة وهيئته فى عصره من خلال رحلته، وهى ما نفتقدها فى رحلة ابن بطوطة، إلا أن هناك بعض الملاحظات التى يمكن أن نأخذها على هذه الصـــورة وموضوعـــها، وتتضح فى أن الحديث كله كان عن الجانب الشكلي لخطيب المسجد وهيئتــه الدينية والرسمية، ومن ثم فإن ابن جبير لم يقدم لنا أى إشارة عن موضـــوع الخطبة نفسها أو صاحبها أو المناسبة التى قيلت فيها أو الأحداث التى كــانت تشغل الناس فى ذلك الوقت، أو حتى إعجابه أو انتقاده لرجـــال الديــن فــي عصره أو أي شيء من هذه الأمور سوي إشارته العابرة إلي وعظ الخطيـب الذي كان له تأثير شديد علي قلوب المصلين . وإنما تركزت الصورة علـــي الخطيب دون تحليل أو نظر للخطبة نفسها .

صورة صلاح الدين في رحلة ابن جبير :

وتبدو صورة صلاح الدين بالقاهرة مكملة لما تحدث عنها ابن جبـير عن أعماله المشرقة بالإسكندرية، والتي أضاءت جوانب مصر كلها بربوعها المختلفة، وقد صحبت هذه الصورة ابن جبير في حديثه عن كل شيء طيـب تقع عليه عين رحالتنا فيسارع إلي ذكره والفخر به وتذكير الناس أن ذلك من مناقب السلطان صلاح الدين .

وتتجلى جزئيات هذه الصورة في التركيز علي الصفـــات المعنويــة للسلطان كالتدين والعدل والرحمة والكرم، والتي تتجسد مـــن خـــلال تلــك المظاهر المادية فيما أقامه صلاح الدين مـــن مســـاجد، ومـــدارس، ومبـــان وقناطر، ومارستان، وقلعة، وفيما أنفقه من أموال علي القائمين علي بعــض المشاهد، والمساجد، وفي رعايته للغرباء وبخاصة المغاربة، وكذلك الأمـــوال

التي أنفقها علي مدارس الأيتام الخاصة، وإلغائه الرسوم التي كانت مفروضة علي الحجاج . وغير ذلك من مناقب صلاح الدين والتي طالما أشاد بها .

ومن هذه الصفات عدله، وتدينه، وورعه وكرمه، وحبه للحضـــارة والعمران، واهتمامه بالنواحي الإنسانية، وحديث ابن جبير يطول كثيرا حول ذلك كله، وإن كنا نكتفي بهذه النماذج اليسيرة التي ترسم لنا هـــذه الصـــورة المشرقة لصلاح الدين (١٠٢) .

يقول معددا بعض هذه المناقب، ومرجعا الفضل فيها له " وما منـــها جامع من الجوامع، ولا مسجد من المساجد، ولا روضة من الروضات المبنية علي القبور، ولا محرس من المحارس، ولا مدرسة من المدارس؛ إلا وفضل السلطان يعم جميع من يأوي إليها، ويلتزم السكني فيها، تهون عليه في ذلـــك نفقات بيوت الأموال "(١٠٣) .

أما أهم ما يؤكد عليه ابن جبير بالنسبة لصورة صلاح الدين فإشارته إلي أهم صفتين اتصف بهما، وهما الرحمة والعدل، واللتان تبدوان من خلال إعفاء الرعية من رسوم الضرائب الباهظة التي كانت تفرض عليهم بأنواعها المختلفة سواء كانت جمارك كما أشرنا من قبل عند حديثنا عـــن ذلـــك فـــي الإسكندرية أو مكوس حج أو ضرائب عامة، رحمة بهم، ودفعا للظلم البيـــن الذي كان يقع عليهم . يقول عن مكوس الحج : " ومن مفاخر هذا الســـلطان المزلفة من الله تعالي، وآثاره التي أبقاها ذكرا ميلا للدين والدنيا : إزالته رسم المكس المضروب وظيفة علي الحجاج مدة دولة الفاطميين . فكان الحجـــاج يلاقون من الضغط في استيدائها عنتا مجحفا، ويسامون فيها خطـــة خســـف باهظة ... فمحا هذا السلطان الموفق هذا الرسم اللعين، ودفع عوضا منه مـــا

يقوم مقامه من أطعمة وسواها "[١٠٤] .، كذلك شمل هذا العفو كل الأقطار التي كانت تحت حكمه وبخاصة مصر التي كانت تفرض فيها " ضرائب علي كل ما يباع ويشتري، مما دق أو جل، حتى كان يؤدي علي شرب ماء النيل المكس، فضلا عن سواه، فمحا هذا السلطان هذه البدع اللعينة كلها، وبسط العدل، ونشر الأمن "[١٠٥] .

ومع حديث ابن جبير المبهر عن صلاح الدين، وإضاءة هذه الصورة المشرقة لأعماله والتي شملت بلاد المسلمين ولاسيما مصر، فإننا نفتقد الحديث أو الخبر أو حتى الإشارة التي تدلنا علي لقائه بهذا السلطان العظيم، أو أخيه الملك يوسف بن أيوب أو أخيه وولي عهده الملك أبي بكر سيف الدين أو أي من الذين أسسوا الدولة الأيوبية .

ولعل ذلك راجع في رأينا إلي أن ابن جبير يحرص دائما علي أن يكون رجلا من عامة الناس وليس من خاصتهم، وقد اتضح ذلك من لحظة قدومه إلي الإسكندرية، وشكوته المرة من أعمال رجال الجمارك له مثل سائر الحجاج الذين كانوا معه علي المركب، ولو كان ابن جبير معروفا بمكانة خاصة لما صدر منه مثل هذه الشكوى هذا. من ناحية، ومن ناحية أخرى فربما أن السلطان صلاح الدين كان خارج البلاد أثناء زيارة ابن جبير لمصر، وقد أشار ابن جبير في حديثه عن رحلته إلي الحجاز وعدم رضائه عن أفعال أمير مكة في جبايته الضرائب الباهظة ومكوس الحج المرتفعة من الحجيج، وفي الوقت نفسه قد التمس العذر لصلاح الدين لعدم معرفته لهذه الأمور وقوله : " ولولا مغيب هذا السلطان العادل صلاح الدين المذكور بجهة الشام، في حروب له هناك مع الإفرنج، لما صدر عن هذا الأمير المذكور هذا الذي صدر في جهة الحاج "[١٠٦] .

هاتان هما صورتان من الصور التي تفردت بهما رحلة ابن جبير عن قرينتها رحلة ابن بطوطة، وبالمقابل أيضا فقد حفلت هذه الأخيرة ببعض الصور التي لم تحفل بها رحلة ابن جبير، وكان وقوف ابن بطوطة عندها وقوفا متأنيا؛ ومن هذه الصور :

صورة مدينة القاهرة في رحلة ابن بطوطة :

يعد ما كتبه ابن بطوطة عن القاهرة من أجمل ما كتبه عن المدن التي تناولها في رحلته بعامة . والقاريء لوصف هذا الرحالة لها يدرك أن أجزاء الصورة التي وصف بها القاهرة تكاد تتشابه إلي حد كبير بما عليه الآن في الجوانب الرئيسة منها باستثناء الفارق الحضاري للعمران بين عصر ابن بطوطة والعصر الحديث .

ويأتي وصف ابن بطوطة المتميز للقاهرة من خلال إعجابه بها وانبهاره برؤيتها، بل إنني أزعم أنه صاحب الوصف الذي وصفت به القاهرة بأنها أم الدنيا أو كما يقول " أم البلاد " .

أما جزئيات هذه الصورة فتتجلى من خلال وصفه للقاهرة بأنها مستقر الحكام منذ القدم ؛ إضافة إلي ما عرف عن اتساعها، وعمرانها، وجمالها، وخيراتها وأنها مستقر للناس علي الرغم من اختلاف اجناسهم، وطبقاتهم، وأوصافهم؛ فضلا عما لحكامها من مكانة سياسية بين العرب والعجم، وما وهبها الله من نيل عظيم البركة، وتربة كريمة المنبت .

يقول ابن بطوطة " وهي أم البلاد، وقرارة فرعون ذي الأوتاد، ذات **الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة المتناهية في كثرة العمارة، المتناهية بالحسن والنضارة، ومجمع الوارد والصادر ومحط رحل الضعيف والقادر.**

وبها ما شئت من عالم، وجاهل، وجاد وهازل ... تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم علي سعة مكانها وإمكانــها ... قــهرت قاهرتــها الأمــم، وتمكنت ملوكها نواصي العرب والعجم ... "[١٠٧] .

ومما يلفت النظر أن لابن بطوطة حاسة فنية خاصة اســتطاع مــن خلالها أن يدرك ما تتصف به الشخصية المصرية من مرح وسرور " وخفـة دم " وحب للغناء والطرب . فيقول " وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولــهو، شاهدت بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده . فزيـن كل أهل سوق سوقهم، وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلي وثياب الحرير، وبقـوا علي ذلك أياما "[١٠٨] .

صورة النيل في رحلة ابن بطوطة :

ما كتبه ابن بطوطة عن النيل يدل دلالة واضحة علي مدي حبه لــه، وعشقه إياه، إذ إنه قد وظف ثقافته الإسلامية ومعارفه العامة في تقديم صورة متفردة لنيل مصر تفضله علي سائر أنهار العالم، حتى إن القارىء لما كتبــه يظن من الوهلة الأولي أنه مصري صليبة، أو إنه " ابن النيل " بحق، وولــد علي ضفافه .

فالنيل عند رحالتنا " يفضل أنهار الدنيا عذوبة مذاق، واتساع قطــر، وعظم منفعة، والمدن والقرى بضفتيه منتظمة، ليس في المعمور مثلــها . ولا يعلم نهر يزرع عليه ما يزرع علي النيل "[١٠٩]، وهــو يؤكـد علــي هــذه الأفضلية من خلال اتكائه علي الموروث الديني سواء كان القرآن الكريـم، أم الحديث النبوي الشريف .فيقول : "وليس في الأرض نهر يسمي بحرا غـيره، قال الله تعالي " فإذا خفت عليه فألقيه في اليم "، فسماه يما وهو البحر، وفــي

الحديث الصحيح أن رسول الله - صلي الله عليه وسلم - وصل إليه ليلة الإسراء إلي سدرة المنتهي، فإذا في أصلها أربعة أنهار، نهران ظاهران ونهران باطنان، فسأل عنها جبريل عليه السلام، فقال " أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات "(١١٠) ؛ كما يعده أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار " وهي النيل والفرات والدجلة وسيحون وجيحون "(١١١) .

ويستمر إعجاب ابن بطوطة بالنيل فيتحدث عن أعاجيبه التي يختلف فيها عن أنهار الدنيا من حيث مجراه، وبدء زيادته ونقصانه، وفيضانه . فيقول : " ومجري النيل من الجنوب إلي الشمال خلافا لجميع الأنهار، ومن عجائبه أن ابتداء زيادته في شدة الحر عند نقص الأنهار وجوفها، وابتداء نقصه حين زيادة الأنهار وفيضها "(١١٢)؛ حتى إذا فرغ ابن بطوطة من تلك المقارنة بين النيل وسائر الأنهار الأخرى، والتي ينحاز فيها إلي جانب نهر النيل تحدث عن أثره علي الأرض والناس بقوله : " وأول ابتداء زيادته في حزيران، وهو يونيه، فإذا بلغت زيادته ستة عشر ذارعا تم خراج السلطان، فإذا زاد ذراعا كان الخصب في العام والصلاح التام، فإن بلغ ثمانية عشر ذراعا أضر بالضياع، وأعقب الوباء، وإن نقص ذراعا عن ستة عشر نقص خراج السلطان.وإن نقص ذراعين استسقي الناس، وكان الضرر شديدا "(١١٣)

وقبل أن يترك ابن بطوطة القاهرة يفرد حديثا طويلا في رحلته يعرض فيه لعدد من وجهاء مصر من السلاطين، والأمراء، والقضاة، والعلماء، والأعيان، ويتحدث عن شهرتهم وأصلهم ومكانتهم، وأعمالهم، وصلتهم بالحاكم أو الرعية؛ ومن كان منهم ذا علم تحدث عن علمه ونبوغه، ومن كان إماما أشار إلي تقدمه وهكذا .

فمن سلاطين مصر علي عهد دخوله بها " الملك الناصر أبو الفتح سيف الدين قلاوون والذي يعرف بالألفي "[114] معللاً شهرته بذلك بأن الملك الناصر اشتراه بألف دينار ذهباً، وهو لا يقف عند ذلك بل يفيض في الحديث عن أعماله بما " يفعله في كل سنة من أفعال البر التي تعين الحجاج من الجمال التي تحمل الزاد، والماء للمنقطعين والضعفاء، وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشي في الدربين المصري والشامي "[115] .

ويقول عن بعض أمراء مصر ومنهم " ناظر جيش الملك الناصر وكاتبه، فخر الدين القهطي . وكان نصرانياً من القبط فأسلم وحسن إسلامه، وله المكارم العظيمة والفضائل التامة . وبرجته من أعلي الدرجات عند الملك الناصر، وله الصدقات الكثيرة والإحسان الجزيل، ومن عادته أن يجلس عشي النهار في مجلس له بأسطوان داره علي النيل ويليه المسجد، فإذا حضر المغرب صلي في المسجد وعاد إلي مجلسه وأتوني [هكذا] بالطعام، ولا يُمنع حينئذ أحد من الدخول كائناً من كان، فمن كان ذا حاجة تكلم فيها فقضاها له... ويحضر عنده فى ذلك الوقت الفقهاء، ويقرأ بين يديه كتاب البخاري، فإذا صلّى العشاء الأخيرة انصرف الناس عنه "[116].

أما قضاة مصر فيذكر منهم "قاضى قضاة الشافعية، وهو أعلاهم منزلة، وأكبرهم قدراً وإليه ولاية القضاة بمصر وعزهم، وهو القاضى الإمام العادل بدر الدين بن جماعة، وابنه عز الدين هو الآن متولى ذلك "[117] .

ويذكر أخيراً من علماء مصر وأعيانها " قوام الدين الكرماني، وكان سكناه على سطح الجامع الأزهر، وله جماعة من الفقهاء والقراء يلازمونه، ويدرسون فنون العلم، ويفتى فى المذاهب، ولباسه عباءة صوف خشنة،

وعمامة صوف سوداء، ومن عاداته أن يذهب بعد صلاة العصر إلى موضع الفرج والنزاهات منفرداً عن أصحابه"(١١٨).

ولا شك أن الكثرة الكثيرة التى ذكرها ابن بطوطة لهذه الشخصيات جميعاً، باختلاف طبقاتها وأجناسها وعلاقته بها تستوقفنا كما استوقفت بعض الباحثين من علمائنا الأفاضل، فالدكتور شوقى ضيف يرى ابن بطوطة "كانت فيه نزعة دينية قوية، فأطال الوقوف عند رجال الدين وأمور الإسلام "(١١٩) ؛ بينما لا يستغرب الدكتور حسنى محمود "اهتمامه بذكر الشخصيات العلمية والدينية التى التقى بها فى كل بلد حلّ فيه . فهو دائماً موضع الاحتفاء والتكريم"(١٢٠) كما يذهب إلى أن ابن بطوطة "كان يستشعر لذة خاصة فى ذكر الأشخاص الذين عرفهم وفى التحدث عنهم، وهم بهذا يشغلونه كثيراً حتى لكأن ذكرهم هواية وتبرك . فيروى من كراماتهم وأحاديثهم فيشوق القارئ ويطلعه على نواح من حياة المجتمع فى زمنه . ويتصل بذكر هؤلاء الناس الفيض العميم من الحكايات والكرامات التى يذكرها عنهم ولهم أو لغيرهم "(١٢١) . أما ذكره للسلاطين والأمراء وهم الذين كان محل حفاوتهم وإعزازهم فمرد ذلك فى رأيه إلى أنهم كانوا "يقربونه حيثما حل، ويزودونه بكتب التوصية حيثما رحل، فلا نراه يودع حاكماً إلا ليلقى آخر منهم، وكأنه مبعوث رسمي، وهو فى غالب الأحيان ما دح لهم، قاصد عطاءهم "(١٢٢) وهو فى ذلك عكس ابن جبير تماماً والذى حرص على أن يبدو دائماً رجلاً عادياً بعيداً عن كل المظاهر الرسمية فى كل مكان يحل فيه .

ومع ذلك فقد يضاف إلى هذه الأمور أن ابن بطوطة كان حريصاً علي ألا يزور مكاناً دون أن يذكر أعلامه المؤثرين فيه وما عرف عنهم من مكانة وعلم وثقافة وعادات . وإن دلّ ذلك على شئ فإنما يدل علي تدينه،

وحبّه للعلم ومجالسة العلماء، وحرصه علي أن يفيد القاريء بمعرفته لرموز السياسة والفكر والثقافة والدين في البلد الذي يحل فيه .

من صور الصعيد في رحلة ابن جبير :

يترك ابن جبير القاهرة جنوبا إلي قوص في مركب نيلي، ويمر بقرى مصر ومدنها، وتتراءى أمام عينيه آثار مصر وحضارتها، وقد كان يود أن يسجل دهشته أمام مشاهدها، ويصور بقلمه تلك الصور الخالدة التي أبدعها المصريون عبر تاريخهم الطويل، لكنه أراد الإيجاز في ذلك ملتمسا العذر من القاريء بقوله : " ولو ذهبنا إلي رسم كل موضع يعترضنا في شط النيل يمينا وشمالا، لضاق الكتاب عنه، لكنا نقصد من ذلك إلي الأكبر الأشهر "(١٢٣) .

ومن ثم فقد حاول أن يصف وصفا سريعا بعض هذه القرى أو المدن، وما امتازت به من آثار فرعونية أو إسلامية أو أسواق أو مرافق، بادئا حديثه عنها بقوله : " وفي صبيحة يوم الأحد السادس من المحرم المذكور كان انفصالنا من مصر، وصعودا في النيل علي الصعيد قاصدين إلي قوص، ... والقرى في طريقنا متصلة في شطي النيل، والبلاد الكبار، حسبما يأتي ذكره إن شاء الله " (١٢٤) .

ومن هذه البلاد " أسكر " وهي تابعة لمركز الصف بالجيزة، " ويذكر أن فيها كان مولد النبي موسي الكليم – صلي الله علي نبينا وعليه، ومنه ألقته أمه في اليم وهو النيل "(١٢٥) "، والمدينة القديمة المنسوبة ليوسف الصديق " – صلي الله عليه وسلم – والتي يعتبرها الدكتور حسين نصار " بوصير " " وبها موضع السجن الذي كان فيه ... وبمدينة يوسف الصديق القديمة المذكورة أهراء علي الصفة المذكورة قبل، يقال إنها كانت أهرام

للأطعمة التي اختزنها يوسف – صلي الله عليه نسلم – وهي مجوفة علي ما يذكر "[١٢٦] .

والمنيا أو منية ابن الخصيب " وهو بلد علي شاطيء النيل ميامناً للصاعد فيه، كبير الأسواق والحمامات وسائر مرافق المدن "[١٢٧] ثم يذكر من الأماكن والآثار الإسلامية بالمنيا " المسجد المبارك المنسوب لإبراهيم خليل الرحمن – صلوات الله علي نبينا وعليه ... ويقال إن بفنائه أثر الدابة التي كان يركبها "[١٢٨] . وهذه الصورة الموجزة والسريعة للمنيا تقابلها صورة ووقفة أطول عند ابن بطوطة .

ولم تحظ أي مدينة مصرية في جنوب الصعيد بوقفة طويلة، وحديث مفصل، وصورة خاصة عند ابن جبير في رحلته مثلما حظيت مدينة إخميم، إذ إنها كانت تمثل الدهشة بالنسبة له؛ أعني دهشة الإعجاب التي تبدو فيما وقعت عليه عينه من آثار إخميم وصوره بقلمه .

صورة إخميم في رحلة ابن جبير :

وقد تجلّت صورة إخميم في نظر ابن جبير في ضوء الحديث عن جانبين :

الأول : وهو الحديث عن المدينة بوجه عام .

الثاني : الحديث عن أثر من آثارها القديمة، وهو الهيكل العظيم وهو مقبرة أثرية يظنها البعض " إحدى كنائس النصارى القديمة " .

أما حديثه عن المدينة فكان في غاية الإيجاز، إذ أشار فيه إلي موقعها، وقدمها، وعمرانها ومساجدها، وكنائسها قائلاً " ومنها مدينة إخميم " وهي أيضاً من مدن الصعيد الشهيرة المذكورة بشرقي النيل علي شطه، قديمة

الاختطاط، عتيقة الوضع، فيها مسجد ذي النون المصري، ومسجد داود أحد الصالحين ... وبهذه المدينة المذكورة آثار ومصانع من بنيان القبط، وكنائس معمورة إلي الآن بالمعاهدين من نصارى القبط "(١٢٩) .

بينما يعد وصفه لإحدى المقابر القديمة أو ما يطلق عليه " الهيكل العظيم " من أدق ما كتب في رحلته عن أثر من الآثار، وهو وصف ينم عن الدهشة والانبهار بمرأى الهيكل الذي يعده إحدى عجائب الدنيا التي لا يبلغها الوصف، ولا ينتهي إليها الحد "(١٣٠) .

ثم قدّم ابن جبير الهيكل من خلال حدقة فنان، التقطت بمهارة كل صغيرة وكبيرة داخله وخارجه، ثم صاغ ذلك في صورة بديعة تكشف عن موهبته الفنية وتنم عن إحساسه بجمال الهيكل، فتحدث عن كثرة سواريه المتقنة الصنعة، وألواحه المنحوتة من الحجارة، وسقفه المصنوع من الخشب المنقوش، وتصاويره الرائعة .

ومن أجزاء هذه الصورة التي تصور هذا الهيكل والتي نعرض لبعضها علي طولها قوله : " ومن أعجب الهياكل المتحدَّث بغرائبها في الدنيا هيكل عظيم في شرقي المدينة المذكورة، وتحت سوارها ... يعرف عند أهل هذه الجهة بالبَرْبَة (١٣١) ثم يقول ... " قد قام هذا الهيكل العظيم علي أربعين سارية، حاشا حيطانه ... ورءوسها في نهاية من العظمة والإتقان، قد نحتت غريباً، فجاءت مُركَّنة (ذات أركان) بديعة الشكل، كأن الخراطين تناولوها، وهي كلها مرقشة بأنواع الأصبغة اللازوردية وسواها ... والتصاوير علي أنواع في كل بلاط من بلاطاته، فمنها ما قد جللته طيور بصور رائقة، باسطة أجنحتها، توهم الناظر إليها أنها تُهم بالطيران، ومنها ما قد جللته

تصاوير آدمية رائقة المنظر، رائعة الشكل قد أعدت لكل صورة منها هيئة عليها، كإمساك تمثال بيدها، أو سلاح، أو طائر، أو كأس أو إشارة شخص إلي آخر بيده ... وداخل هذا الهيكل من المجالس والزوايا والمداخل والمخارج والمصاعد والمعارج، والمسارب والموالج ما تضل فيه الجماعات من الناس، ولا يهتدي بعضهم لبعض إلا بالنداء العالي "[١٣٢] .

ثم ينهي ابن جبير هذه الصورة الوصفية الرائعة لهيكل إخميم بدهشته الشديدة التي صاحبت رؤيته له، وعبَّر عنها من خلال وصفه لأجزائه، وذلك بادعائه العجز والتقصير عن التعبير لنقل الصورة الحقيقية لجماله، ليس بالنسبة له فقط، وإنما لكل من يصفه، أو يخبر عنه أو تقع عينه عليه، ولو كان ذلك أبلغ البلغاء في الوصف أو في الفصاحة والبيان يقول : " فلا يظنَّن المتصفح لهذا المكتوب أن في الإخبار عنه بعض غلو . فإن كل مخبر عنه – ولو كان قُسَّاً بياناً، أو سحباناً – يقف موقف العجز والتقصير "[١٣٣] .

ويترك ابن جبير إخميم ويجتاز بعض القرى والمدن الكثيرة بشاطيء النيل الشرقي والغربي، فيمر علي منشأة السودان والبليئة ودشنة حتى يصل إلي دندرة، وهي مدينة علي مقربة من الشط الغربي للنيل، وقريبة من قوص، وتشتهر بكثرة نخلها، وحسن منظرها، وطيب رطبها وهو لا يزور معالم هذه المدن . وإنما يكتفي بنقل ما قيل عنها من أهلها، وقد اقتضت أمانته العلمية التي تميز بها أن يخبرنا أنه قيل له : " إن بدندرة هيكلاً أثرياً عظيماً يعد أجمل وأعظم من هيكل إخميم "، وقد نقل ابن جبير ذلك لنا علي الرغم من إعجابه الشديد بهيكل قنا من خلال ما رآه وما كتبه عنه .

صورة إخميم في رحلة ابن بطوطة :

فإذا عدنا إلي وصف ابن بطوطة لمدينة إخميم، فإننا نجـــده وصفــاً مختصراً يتسم بالتعميم وقد اكتفي فيه بالتعريف بأنها " مدينة عظيمة، أصيلــة البنيان، عجيبة الشأن "(١٣٤) كما اكتفي بالإشارة إلي البربي الذي اشتهرت بــه بأنه " مبني بالحجارة، في داخله نقوش وكتابة للأوائل لا تفهم "(١٣٥) .

وواضح أن ابن بطوطة يشير إلي ما علــي الــبرابي مــن كتابــات هيروغليفية لم تكن قد عرفت في هذا العهد حتى عصره، ثم يذكـــر بعــض الخرافات والأساطير التي دارت بين الناس من خلال ما نقــش علــي هــذه البرابي بجانب هذه الكتابات من " صور الأفلاك والكواكب . ويزعمون أنــها بنيت والنسر الطائر ببرج العقرب وبها صور الحيوانات وسواها "(١٣٦) ثــم يذكر أن رجلاً بإخميم كان يعرف بالخطيب قد أمر بهدم بعض هذه الــبرابي وابتني بحجارتها مدرسة .

ويقف ابن بطوطة في حديثه عن إخميم عند ذلك فقط، ويتركها ليمــر بقرى ومدن أخرى حتى يصل إلي عيذاب .

من صور الصعيد في رحلة ابن بطوطة :

وينطلق ابن بطوطة جنوباً أيضاً من القاهرة فى رحلة برية قــاصداً ميناء عيذاب على البحر الأحمر، ليعبر منه إلى ميناء جدة لزيارة بيــت الله الحرام بمكة المكرمة، وقد مرَّ فى طريقه بكثير من أربطــة وقــرى ومــدن الصعيد، زار منها بوش والبهنسا والمنيا وملــوى وإخميــم وقنــا وقــوص والأقصر وأدفو ثم عيذاب؛ والتى لم يتمكن من الإبحار منها إلى جدة بســبب

حرب أهلها "البجاة" مع الأتراك فاضطر إلى الرجوع إلى مصر ثانية ليأخذ طريق الشام إلى الحجاز .

وقد حاول أن ينقل على وجه السرعة أو بأسلوب "اللقطات" انطباعه الخاص عن بعض هذه المدن والقرى، والذى جاء فى جمل سريعة يصور فيها أهم ما تمتاز به هذه الأماكن، من شهرة خاصة بها، فى صناعة معينة، أو اتساع أسواق، أو ازدهار عمران . وإن كان ما يشغله دائماً هو زيارة العلماء والصالحين والأعيان وقبور الأولياء أو الحديث عن القضاة والأمراء والفقهاء وغيرهم .

ويعد رباط الصاحب تاج الدين بن حناء بدير الطين أول مكان وصل إليه ابن بطوطة بعد قدومه من مصر وهو يصفه بقوله: "وهو رباط عظيم بنى على مفاخر عظيمة، وآثار كريمة أودعها فيه، وهى قطعة من قصعة رسول الله "صلى الله عليه وسلم" ، والميل الذى كان يكتحل به، والدرفش وهو الإشفاء [١٣٧] الذى كان يخصف به نعله، ومصحف أمير المؤمنين علي بن أبى طالب الذى بخط يده رضى الله عنه." [١٣٨] .

ثم يمر علي مدينة بوش التي يقول عنها "وهذه المدينة أكثر بلاد مصر كتاناً، ومنها يجلب إلى سائر الديار المصرية وإلى إفريقيا"؛ ومدينة أسيوط: "وهى مدينة رفيعة أسواقها بديعة، وقاضيها شرف الدين بن عبد الرحيم الملقب (بحاصل ما تم)..."[١٣٩]، حتى يصل إلي قنا التي يصفها بقوله: " وهى صغيرة حسنة الأسواق، وبها قبر الشريف الصالح الولى صاحب البراهين العجيبة، والكرامات الشهيرة، عبد الرحيم القناوى – رحمة الله عليه –"[١٤٠] .

صورة المنيا في رحلة ابن بطوطة:-

ومنية ابن خصيب أو مدينة المنيا الحالية هى المدينة الوحيدة من مدن الصعيد التى أفاض ابن بطوطة في الحديث عنها بإعجاب وانبهار إلي الحد الذي يفضلها علي مدن الصعيد كافة، وربما يرجع ذلك إلي ما ذكره عن مساحتها، وموقعها وجمالها، ومرافقها المتعددة التي هي مجال اهتمام ابن بطوطة دائماً لأي بلد يزوره .

ونستطيع أن نتبين إعجاب ابن بطوطة بمدينة المنيا فى قوله عنها "وهى مدينة كبيرة الساحة، متسعة المساحة، مبنية على شاطئ النيل، وحق حقيقي لها على بلاد الصعيد التفضيل، بها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد"[١٤١]، وهذا الحب لمدينة المنيا، والإعجاب بها، والانبهار برؤيتها وتفضيلها على بلاد الصعيد كافة شبيه بما يطلق على المنيا الآن بـ "عروس الصعيد" .

ويسترسل ابن بطوطة فى حديثه عن المنيا من خلال استلهامه للتاريخ، إذ يقص خبراً تاريخياً يتعلق بتسمية المنيا بـ "منية ابن الخصيب" ويرجعه إلى الخليفة العباسي "المأمون" الذى رغب فى أن يقطع واليه على مصر "الخصيب بن عبد الحميد" ما تمناه من مدنها "المنيا" مكافأة له على حسن معاملته للمصريين، وكذلك الغرباء الذين يقصدونه من بغداد من أقارب الخليفة، وبعض الشعراء الذين مدحوا الخصيب وأجزل لهم العطاء، ومنهم الشاعر أبو نواس الذى مدحه بقصيدة قال فيها :

أنت الخصيب وهذه مصر   فتدفَّقا فكلاكما بحر

وسميت المنيا بمنية ابن الخصيب وسكنها خصيب إلى أن توفى، وأورثها عقبه إلى أن انقرضوا"(١٤٢) .

ولإعجاب ابن بطوطة بالمنيا نراه لا يتحدث عن المدينة فقط، وإنما يتحدث عن مدينتين من مدنها أيضاً وهما البهنسا، وملوى، فيصف البهنسا بكبرها، وكثرة بساتينها، وبصناعة ثياب الصوف الجيدة بها ويقول عن "منلوى" أو ملوى " وهى صغيرة، مبنية على مسافة ميلين من النيل... وبهذه المدينة إحدى عشرة معصرة للسكر، ومن عوائدهم أنهم لا يمنعون فقيراً من دخول معصرة منها - فيأتى الفقير بالخبزة الحارة فيطرحها فى القدر التى يطبخ السكر فيها، ثم يخرجها وقد امتلأت سكراً فينصرف بها " وما ذكره ابن بطوطة عن وجود معاصر السكر بملوى، مازالت تشتهر به بالفعل مدن ملوى وقراها حتى الآن نتيجة لزراعة قصب السكر بها." (١٤٣)

وحديث ابن بطوطة المعهود دائماً عن لقائه مع العلماء والقضاة فى كل مكان يزوره كان ضمن زيارته للمنيا ومدنها أيضاً، إذ يحدثنا عنهم، وعن صفاتهم، واستضافتهم له، وعن أية جوانب أخرى تتعلق بلقائه معهم .

من صور المدن الأخرى :-

- عيذاب :

وصل ابن جبير إلى عيذاب، وهى مدينة من مدن الصحراء الشرقية تقع على ساحل البحر الأحمر من ناحية الجنوب، ويعبر منها الحجيج إلى جدة، وقد أقام رحالتنا بها مع أصحابه ثلاثة وعشرين يوماً تعد أصعب فترة مرت به وبأصحابه طوال رحلته إلى بيت الله الحرام، ويمثل ما كتبه ابن

جبير عن عيذاب وعن أهلها ومعاملتهم السيئة أقسى وأمر ما كتب فى رحلتـه عن أية مدينة أخرى .

وحتى نكون منصفين فإن الرجل لم يبد تبرمـــه، أو يظـــهر شـــكواه وغضبه إلا بعد ما عانى من المدينة، من سوء جوها، وقلة طعامها، وجشـــع أهلها، والدليل على ذلك أنه بدأ حديثه عن المدينة مثل أى مدينة تحدث عنـــها من قبل فى رحلته؛ فتحدث عن موقعها، ومبانيها، ومرساها فقال عنها "هـــى من أحفل مراسى الدنيا، بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها، وتقلع منـــها زائداً إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة ." (١٤٤)

وتأتى الصورة الحقيقية لعيذاب فى نظر ابن جبير فى إطار الحديـــث عن جانبين أساسيين وهما :

(أ) طبيعة أرض عيذاب ؛ ومعاناة ابن جبير وأصحابه من المرور بـــها أو الإقامة فيها، وهو ما يرد على لسانه فى أكثر من موضع من ذلـــك قوله: وهى فى صحراء لا نبات فيـــها، ولا يؤكـــل فيـــها شـــئ إلا مجلوب"(١٤٥) وقوله فى محنته فيها، ومعاناته هـــو وأصحابـــه منـــها "فكانت مدة المقام "بعيذاب"، ثلاثة وعشرين يوماً، محتسبة عند الله عز وجل لشظف العيش بها، وسوء الحال، واختلال الصحة، لعدم الأغذية الموافقة، وحسبك من بلد كل شئ فيه مجلوب حتى الماء، والعطـــش أشهى إلى النفس منه، فأقمنا بين هواء يذيب الأجسام، ومـــاء يشـــغل المعدة عن اشتهاء الطعام، فما ظلم من غنى عن هذه البلد"(١٤٦)؛ حتى الطريق إلى عيذاب كان نوعاً من العذاب، بما فيه من وعورة شـــديدة ورياح مهلكة، ومجاهل الصحراء التى قد يضـــل الحجـــاج فيـــها أو

يهلكون عطشاً "والذى يسلم منهم يصل إلى "عيذاب" كأنه منشر من كفن"[١٤٧] .

(ب) **أهل عيذاب** وسوء معاملتهم للحجيج : ويرجع ابن جبير ذلك إلى طبيعة الأرض القاسية التى يعيشون فيها، والتى انعكست بدورها على سلوكياتهم، وأخلاقهم، ومعاملتهم للآخرين من ناحية وإلى طبائعهم القاسية من ناحية أخرى فهم "ببلدة لا رطب فيها ولا يابس، قد ألفوا بها عيش البهائم،...، على أنهم أقرب إلى الوحش منهم إلى الإنس"[١٤٨]، وهو لا يمل من الحديث عن أخلاقهم ودينهم وأوصافهم وعاداتهم وتقاليدهم؛ لكنه حديث الساخط عليهم، المتبرم منهم إنهم "أضل من الأنعام سبيلاً، وأقل عقولاً، لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التى ينطقون بها إظهاراً للإسلام، ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة، وسيرهم مالا يرتضى ولا يحل " [١٤٩] .

وتنسحب آثار هذه الصفات جميعاً على مفردات الصورة السيئة التى يقدمها ان جبير لأهل عيذاب فى تعاملهم مع الحجيج تعاملاً يقوم على الاستغلال والجشع .إنهم انتهازيون يلجأ إليهم الحجيج مضطرين للحصول على طعامهم واحتياجاتهم الخاصة، فيفرضون "على كل طعام يحملونه ضريبة معلومة"[١٥٠] غير الضرائب الأساسية العالية التى كانت تفرض عليهم من قبل أن يرفعها عنهم صلاح الدين، يضاف إلى ذلك "الجلاب" أو المراكب التى يؤجرونها للحجيج بأثمان باهظة لنقلهم ونقل أمتعتهم .

وهم غدّارون حين ينزلون إلى الحجيج الذين تلقيهم الرياح بعيداً عن عيذاب، فيؤجرون لبعضهم الجمال ويسلكون بهم طريقاً ليس به ماء فيهلك

بعضهم وقد يذهب أكثرهم عطشاً، فيحصل هؤلاء الناس على "ما يتخلفه من نفقة أو سواها" (١٥١) من أمتعة .

وهم جشعون أيضاً لا همَّ لهم إلا جمع المال بكافة الوسائل، وهاهو ابن جبير ينقل لنا صورة معبرة عن جشعهم بقوله فيهم: "ولأهل "عيذاب" في الحجاج حكم الطواغيت وذلك أنهم يشحنون بهم الجلب، حتى يجلس بعضهم على بعض، وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج المملوءة، يحمل أهلها على ذلك الحرص والرغبة في الكراء حتى يستوفي صاحب الجلبة منها ثمنها في طريق واحد، ولا يبالي بما يصنع البحر بها بعد ذلك، ويقولون: "علينا بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح" (١٥٢)، وقد جاءت هذه الصورة بعد أن قدم لنا ابن جبير وصفاً دقيقاً لصناعة هذه المراكب أيام زيارته للمدينة وبعد رؤيته لصناعتها .

ولا يجد ابن جبير ما يعبر به عن ضيقه وضيق أصحابه من أهل عيذاب إلا قوله : "وبالجملة فهم أمة لا خلاق لهم، ولا جناح على لاعنهم"(١٥٣) والشئ نفسه يقوله عن عيذاب "فالحلول بها من أعظم المكاره التي حُفَّ بها السبيل إلى البيت العتيق، زاده الله تشريفاً وتكريماً، وأعظم أجور الحجاج على ما يكابدونه، ولاسيما في تلك البلدة الملعونة" (١٥٤) .

فإذا تركنا هذه الصور القاتمة التي جاءت من خلال قلم ابن جبير عن عيذاب وأهلها في رحلته، نجد هناك بعض الصور المشرقة، والمعارف المهمة، والملاحظات العابرة لرحالتنا وهو في طريقه من قوص إلى عيذاب ومنها: فراغه من حفظ كتاب الله عز وجل(١٥٥)، ووصفه لضخامة التجارة التي كانت مصدراً مهماً لاقتصاد الدولتين الأيوبية والمملوكية وصفاً يعبر

عن الدهشة والمبالغة فى قوله: "ورمنا فى هذه الطريـــق إحصـــاء القوافـــل الواردة والصادرة، فما تمكن لنا، ولاسيما القوافل العيذابية المتحملـــة لســلع الهند، الواصلة إلى اليمن، ثم من اليمن إلى عيذاب ... من ... أحمال الفلفل، فلقد خيّل إلينا لكثرته أنه يوازى التراب قيمـــة(١٥٦)."؛ ومـــن هـــذه الصـــور المشرقة التى أعجبته وأدهشته أيضاً تلك الأمانة التـــى وجدهـــا عنـــد أهـــل الصحراء الشرقية والتى يذكرها بكل سعادة حين يقول: "ومن عجيـــب مـــا شاهدناه بهذه الصحراء أنك تلتقى بقارعة الطريق أحمال الفلفل وسائرها مـــن السلع مطروحة لا حارس لها، تترك بهذا السبيل إما لإعياء الإبل الحاملة لـــها أو غير ذلك من الأعذار، وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات، وعلى كثرة المار عليها من أطوار الناس"(١٥٧) .

وهكذا كانت وقفة ابن جبير طويلة أمام عيذاب عبَّر فيها عن نفســـه تعبيراً ذاتياً صادقاً إذ تكلم عن الآخر بكل حياد، ودون مجاملة لـــه أو أخـــذ موقف منه، فحين يرضي عن أشياء يذكرها بصدق وأمانة ويذكر تفاصيلـــها، وحين تغضبه أشياء أخرى لا يملك إلا أن يتحدث عنها بكـــل تفاصيلـــها لا لغرض الشكوى منها فقط، ولكن لغرض التحذير من أن يتكرر ما أغضبه مع آخرين من أمثاله، وقد رأينا ذلك بوضوح في حديثه عن أهـــالي الصحـــراء الشرقية القريبين من عيذاب، وإشادته بأمانتهم وأمنهم في طرقهم، ثم عكـــس ذلك عندم سرد ذكرياته المأساوية مع بلدة عيذاب نفسها بأرضـــها وجوهـــا ومائها، ثم أهلها ومعاملتهم غير الكريمة للحجاج عامـــة،ولـــه ولأصحابـــه خاصة.

ولا نجد مثل ذلك عند ابن بطوطة في حديثه عن عيذاب إلا ســـطوراً قليلة لم يذكر فيها أي شيء سوي أنـــها " مدينـــة كبـــيرة، كثـــيرة الحـــوت

واللبن،ويحمل إليها الزرع والتمر من صعيد مصر"[158] وهو ما يؤيد بعض ما قاله ابن جبير عنها بأن كل شيء في هذا البلد مجلوب، وعن أهلها فقد وصفهم بأوصاف موجزة تتناول وظيفتهم، وألوانهم، وهيآتهم وعدم التزامهم بالتشريع الإسلامي وبخاصة في مسألة الميراث حين قال " وأهلها البجاة، وهم سود الألوان، يلتحفون بملاحف صفراء، ويشدون علي رؤوسهم عصائب .. وهم لا يورثون البنات . طعامهم ألبان الإبل "[159] لعل ما أضافه إلي ذلك إشارته إلي أن سلطان البجاة بعيذاب كان مشغولاً بحرب الأتراك وأنه " خرق المراكب وهرب الترك أمامه "[160] وتعذر سفر ابن بطوطة بالبحر وعاد إلي صعيد مصر علي الجمال .

ونخلص من عرضنا السابق للمشاهد الوصفية إلى أن ابن جبير وابن بطوطة استطاعا من خلال زيارتهما القصيرة لمصر، أن يقدما صورة صادقة عن مصر، ومدنها وقراها، وآثارها، وعلمائها، ومشايخها، ومتصوفيها، وأن ينقلا صورة حقيقية أيضاً عن الحياة بجوانبها المختلفة: السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية، وقد كان لكل واحد منهما رؤيته الخاصة، وعدسته الكاشفة التى أظهرت مصر من خلال فترة مهمة من تاريخها؛ ونقصد بها عصر فترة الحروب الصليبية وهو وقت زيارة ابن جبير لها، ثم عصر القضاء على الصليبيين فيما بعد ساعة زيارة ابن بطوطة أيضاً.

وإن كان ثمة مآخذ تؤخذ على الرحلتين فهو من قبيل ما كان يتمنى القارئ أن يجده فيهما ، وهو الحديث عن الحياة الأدبية فى عهدهما؛ فالرحلتان تكاد تخلوان تماماً من وصف الحياة الأدبية التى كانت مزدهرة فى مصر فى عصرهما؛ كما أن الرحالتين لم يتقابلا مع أى شعراء أوكتّاب أثناء

زيارتهما لمصر، رغم حرصهما على مقابلة كثير من الأشخاص المــــهمّين، كما لم تتضمن الرحلتان أية إبداعات أدبية، ولم تعرضـــا لبعــض المجــالس الأدبية التى كان يحرص الخلفاء على حضورها، كذلك خلت الرحلتان تمامـــاً من الحديث عن بعض الجوانب الثقافية لمصر آنذاك .

(ء) الخصائص الفنية للشكل في الرحلتين :

لعل ما أوردناه من نماذج مفصلة من نصوص رحلتي ابن جبير وابن بطوطة يقدم لنا رؤى مختلفة لجوانب صورة مصر؛ والتي ركزت الدراســـة عدساتها علي إضاءتها عبر هاتين الرحلتين، وهو ما يمثل في الوقت نفســـه جانب المضمون في طابعه الوثائقي، وذلك بما يقدمه هـــذا المضمـــون مـــن شواهد ومشاهد واقعية للرحالتين أثناء زيارتهما لمصر في عصرهما علـــي اختلاف الزمن بينهما .

والشكل هو الجانب الآخر لأدب الرحلة، وهو المكمّـــل للمضمـــون، وذلك في ضوء الاجتهادات التي قدمـــت فـــي تعريـــف أدب الرحلـــة(١٦١) . وبخاصة فيما أورده د. سيد حامد النسّاج في كتابه "أدب الرحلات في حياتنـــا الثقافية " في تعريفه للمفهوم بقوله(١٦٢) : "ذلك النثر الذي يتخذ مـــن الرحلـــة موضوعاً، أو بمعني آخر- الرحلة عندما تكتب في شكل أدبي نثري متمـــيز، وفي لغة خاصة، ومن خلال تصور بناء فني له ملامحه وسماته المستقلة "

وعلي أية حال فإنه يمكننا معالجة موضوع الشكل في تناول الرحلتين لصورة مصر من جوانب ثلاثة هي (١٦٣):

(١) طريقة التدوين .

(٢) البنية .

(٣) اللغة .

- **طريقة التدويـن :**

يمثل تدوين الرحلة تلك اللحظة الجادة التي يقرر فيها الرحّال أن ينقل تجربته السفرية للآخرين بقصد إعلامهم أو إقناعهم، وبعبـارة أخـرى هـو محاولة نقل مادة الرحلة من فوضى المشاهدة المطلقـة إلـي مـادة منظمـة ومنتظمة في كتاب .

ويرجع لابن جبير - علي وجه الخصوص - فضل الريادة فـي أنـه " لفت الأنظار إلي أهمية تدوين ما يشاهده الكتاب في رحلاتهم، وإلي شـكل معين فيه هذا التدوين ".(١٦٤)

ولكي يبدأ الرحالة في تحقيق ذلك، لابد وأن يكون الهدف من التدوين واضحاً في ذهنه " لأن تحدد الهدف تتبني عليـه خطـوات كثـيرة تتعلـق باستخدام الأدوات الفنية، وهذا سيؤدي إلي القول بأن الرحال يختـار نـهجاً بعينه، ويتبعه وهو واع بمميزاته وعيوبه؛ لأن هذا النهج - في نظره - هـو المنهج الأمثل".(١٦٥)

وعلي الرغم من تعدد المناهج أو الطرق التي يلجأ إليها الرحال فـي تدوين رحلته، ويختار منها ما يلائمه تبعاً لما يمتلكه من مادة متوفرة لديـه، فإن الرحالة ينقسمون في ذلك إلي فريقين من حيث تدوينهم لرحلاتهم :(١٦٦)

١. فريق يعتمد علي المادة المدونة أثناء الرحلة، إضافـة إلـي الذاكـرة والقراءات السابقة .
٢. فريق يعتمد علي الذاكرة فحسب .

أما مناهج التدوين التي يستخدمها الرحالة في تدوين رحلاتهم فـــهي كثيرة ومتنوعة، وإن كان أكثرها استخداماً يدور حول المناهج التالية : (١٦٧)

١) التدوين الزمني . ٢) التدوين المكاني . ٣) التدوين الموضوعـــي .

٤) التدوين الانتقائي . ٥) التدوين الاستدعائي .

وقد يستخدم الرحالة منهجاً بعينه من هذه المناهج، أو يستخدم أكـــثر من منهج، أو يزاوج بين منهجين، وذلك حسب مادة الرحلة وهدفها .

* منهج التدوين فى رحلة ابن جبير :

وقد استخدم ابن جبير في تدوين رحلته "الطريقة الأولي" في تسجيلها، في شكل مذكرات يومية، في أوراق منفصلة خاصة بها مستعيناً فـــي ذلـــك بمنهج التدوين الزماني والمكاني علي شكل تبادلي؛ إذ درج علـــي أن يذكـــر التاريخ مع كل بلد يصل إليه أو مشهد يزوره فى معظم الأحيـــان بالســـاعة واليوم والشهر، والسنة الميلادية والهجرية، إذ كان يذكر تاريخ الوصول عند كل مدينة بالميلادي والهجري، ثم يذكر بعد ذلك تاريخ القيام منها، وقد يحـــدد المسافة بين مدينة وأخرى، أو بين المدينة وقربها من الشاطئ أو بعدها .

والمتتبع للتدوين الزماني والمكاني للرحلة يجد أنه لم يترك شـــهراً إلا وكان مدوناً برحلته، وكانت أيامه مليئة بأخبار وصوله لمكان أو ارتحال منه، أو مشاهدة أثر أو مَعْلَم أو وصفهما أو ذكر حادث حدث له أثناء زيارته، وهو يذكر ذلك كله تحت عناوين منفصلة ومنظمة .

يقول عند مغادرته جزيرة صقلية، ووصوله إلي الإسكندرية: "وفي ليلة الثلاثاء الخامس والعشرين من الشهر المذكور، وهو الثاني والعشرين من شهر مارس حاذينا البر المذكور تقديراً لاعياناً. وفي صبيحة اليوم المذكور فارقناه متوجهين لقصدنا . وبين هذه الجزيرة المذكورة وبين الإسكندرية ست مئة ميل أو نحوها "[١٦٨] . ثم يقول: " فكانت إقامتنا علي متن البحر ثلاثين يوماً، ونزلنا في الحادي والثلاثين، لأن ركوبنا إياه كان يوم الخميس التاسع والعشرين من شهر شوال، ونزولنا عنه في يوم السبت التاسع والعشرين من شهر ذي القعدة، وبموافقة السادس والعشرين من مارس، والحمد الله علي ما مَنَّ به من التسهيل والتيسير"[١٦٩]

فتدوين الرحلة عند ابن جبير كان يومياً تقريباً أو كلما دعت الحاجة ؛ علي صورة مذكرات يومية لا كتاب متصل مطرد . ثم نسق هذه المذكوات وفقا لمراحل الرحلة، هو أو بعض تلاميذه .

أما التدوين في رحلة ابن بطوطة فيمثل إشكالية بين الدارسين والباحثين الذين تناولوا نص الرحلة بالدرس والتحليل، وتتلخص هذه الإشكالية في معرفة شخصية الكاتب الحقيقي أو المدون لنص الرحلة؛ هل ابن بطوطة هو الكاتب الحقيقي للنص ؟ أم محمد ابن جزي أحد كتَّاب ديوان السلطان أبي عنان المريني ؟

إن الخبر الذي شاع بين الدارسين للرحلة يروي أن ابن بطوطة ما كاد يستقر في فارس حتى راح يقص رحلته العجيبة علي الناس، ووصل خبر هذه الرحلة إلي السلطان أبي عنان المريني فعجب بما سمعه من ابن بطوطة، واستدعي كاتبه محمد بن جزي، وأمره بأن يقيد ما يمليه عليه ابن

بطوطة من أخبار رحلته وبدأ "ابن جزي " وهو عالم أديب، تدوين الرحلة عام ٧٥٥ هـ وانتهي سنة ٧٥٦ هـ ... وهكذا فقد أملي ابن بطوطة، وكتب ابن جزي، لكن الكاتب لم يكتف بما أملي عليه، بل أضاف شواهد كثيرة كما نقل عن ابن جبير وغيره فصولاً عن بعض المدن التي زارها ابن بطوطة"[١٧٠].

ومن خلال هاتين الشخصيتين " ابن بطوطة " الرحالة و "ابن جزي " – كاتب ديوان السلطان – دارت تساؤلات العلماء وافتراضاتهم عن السبب أو الكيفية التي تَّم بها تدوين الرحلة . وتتلخص فيما يلي [١٧١] .

- لماذا لم يدوِّن ابن بطوطة رحلته بنفسه ويهديها للسلطان أبي عنان ؟
- لماذا أمر السلطان كاتب ديوانه لأن يكتب ما يمليه عليه ابن بطوطة؟
- هل دوّن ابن بطوطة رحلته في مذكرات يومية، ثم ضاعت وبدأ إملاءها من جديد من الذاكرة ؟ أم لم يدونها وأملاها من الذاكرة مباشرة ؟
- ربما كانت مقدرة ابن جزي الفنية تفوق براعة ابن بطوطة مما حدا بالسلطان أن يطلب منه تدوين الرحلة .
- من الممكن أن يكون ابن بطوطة قد قيد رحلته في ترحاله، وكانت ضخمة جداً مما اضطره إلي أن يميلها بنفسه موجزة علي ابن جزي، أو أن ابن بطوطة قد أعطاها بحجمها الضخم لابن جزي . وقام الأخير باختصارها .

إن ما ورد في نص مقدمة ابن جزي للرحلة، وكذلك ما ورد بخاتمتها يحتمل تفسيرات وتأويلات كثيرة مما يجعلنا نلتمس العذر لكل من يدلي برأي في هذا الموضوع وذلك لاحتمال عبارات ابن جزي أكثر من تفسير، وحتى

نكون علي بينة من ذلك نجتزيء بعض هذه السطور من مقدمة الرحلة ونهايتها من نص ابن جزي الذي يقول فيه " ونفذت الإشارة الكريمة بأن ما شاهده في رحلته من الأمصار، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار، ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار ... فأملي من ذلك ما فيه نزهة الخواطر ... وصدر الأمر العالي ... خدمة جنابهم محمد بن محمد بن جزي ... أن يضم أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبد الله " ابن بطوطة " من ذلك، مشتملاً في تصنيف يكون علي فوائده مشتملاً، ولنيل مقاصده مكملاً، متوخياً تنقيح الكلام وتهذيبه، معتمداً إيضاحه وتقريبه "[١٧٢] ثم يقول ابن جزي عن منهجه في تدوين رحلة ابن بطوطة: " ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد التي قصدها ... وربما أوردت لفظة علي وضعه، فلم أخل بأصله ولا فرعه . وأوردت جميع ما أورد من الحكايات والأخبار ... وشرحت ما أمكنني شرحه من الأسماء العجمية لأنها تلتبس بعجميتها علي الناس "[١٧٣] وفي نهاية الرحلة يقول ابن جزي " انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبد الله محمد بن بطوطة، أكرمه الله "[١٧٤] .

فمن السطور السابقة نجد أنفسنا أمام كلمات ابن جزي عن ابن بطوطة ورحلته وهي "فأملي"، "يضم أطراف ما أملاه"، "نقلت معاني كلام الشيخ"، انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ . وهي كلمات لم تحسم أمر تدوين الرحلة، وتعود بنا مرة أخرى للتساؤل . هل تدوين الرحلة تم عن طريق إملاء الشيخ من ذاكرته لابن جزي بطريق الشفاهية، أم بتقييده الرحلة، وتصرف ابن جزي فيها بالتلخيص بطريق الكتابية .

وحتى لا ندخل في دائرة الجدل الذي دار فيه الباحثون، فإننا نري سواء كان التدوين قد تم بهذه الطريقة أو بتلك، فإن نص الرحلة أصبح

مشاركة بين ابن بطوطة وابن جزي، وأن إطلاق الحكم في هذه الحال يجب أن يكون علي النص لذاته، وليس لانتسابه لأي من الرجلين . لأن في نسبته لأحدهما يكون فيه غبن للآخر؛ ومن ثم يصبح التدوين هنا قد جمع بين الاعتماد علي الذاكرة من خلال ما تدل عليه عبارات " أملي، أملاه وغيرها " والاعتماد علي المادة المدونة أثناء الرحلة وما تدل عليه عبارات " ما لخصته من تقييد، نقلت معاني وغيرها " .

منهج التدوين في رحلة ابن بطوطة :

لم يكن ابن بطوطة يلتزم الدقة الزمنية في التدوين عند زيارته للمدن بوجه عام، والمدن المصرية ومعالمها وآثارها بوجه خاص، فقد كان اهتمامه بالتدوين الزمني اهتماماً ثانوياً بالنسبة لاهتماماته الأخرى، إذ جمع مناهج ثلاثة في تدوينه لرحلته، وهي التدوين المكاني، والتدوين الموضوعي، والتدوين الانتقائي .

ولم تأت هذه المناهج الثلاثة منفصلة في تدوين الرحلة، وإنما جاءت مترابطة ومتصلة، فالمكان عند ابن بطوطة أو التدوين المكاني كان يشكل نقطة الوصول أولاً، ثم المحور الذي ينطلق منه إلي الحديث عن الموضوع الذي يريده أو ينتقيه بعد ذلك، وإذا كان المكان يتمثل في المدينة – وهو الغالب – أو المسجد أو بعض الآثار، أو زوايا المتصوفة، ثم ما يتعلق بهم من حكايات أو كرامات أو قصص شعبي، فإذا لم يكن ذلك فإن الحديث يكون عن أهم ما يمتاز به هذا المكان من مميزات خاصة به منتقياً في ذلك ما يراه أو يسمع به عنه .

وهكذا لم يكن ابن بطوطة يجعل من التدوين المكاني تدويناً لذاته، بقدر ما يكون هذا التدوين وسيلة لذكر معلومات أخرى تتصل به بطريقة تجذب قاريء الرحلة لقراءتها .

البنية :

ويكون الغرض منها إظهار مدي التوافق بين أجزاء النص الرحلي ذاته، وهو ما يسمي بالتوافق الداخلي، ثم بين وحدة النص الموضوعية ككل وما يتركه من أثر علي المتلقي، وبين الهدف الأساسي للرحلة، وهو التوافق الخارجي (١٧٥) .

وقد قسم بعض الباحثين البنية في أدب الرحلات إلي أنواع أربعة هي : (١٧٦)

(١) البنية النمطية .
(٢) البنية المحورية .
(٣) البنية الانتقائية .
(٤) البنية التضمينية .

وتنتمي رحلتا ابن جبير وابن بطوطة إلي البنية المحورية في إطار بنية نمطية، الأمر الذي يجعلنا نوضح المقصود بكل منهماً .

أما البنية النمطية فتدل علي أنها، تتبع نهجاً تقليدياً يقترب في أغلب الأحيان من مسيرة الرحلة الواقعية وصورتها، وهي تخضع في ذلك للتسلسل الزماني، والانتقال المكاني، وتتكون من أربع وحدات هي: (١٧٧)

(١)المقدمة، أو التمهيد .
(٢)رحلة الذهاب .
(٣)وصف هدف الرحلة .
(٤)رحلة العودة والخاتمة .

بينما تعتمد البنية المحورية علي محاور معينة يحددها الرحال، وقد تصاحبه في رحلته وهي تشكل دائرة اهتماماته مثل " من يهتم بعلماء كل بلد يحله أو أدبائه، وهناك من تجذبه المناظر الطبيعية أو المذاهب الفكرية، وهناك من يبحث عن كل غريب وعجيب ...إلي آخر هذه الاهتمامات "(١٧٨).

وفي ضوء هاتين البنيتين نشير إلي أننا قد عرضنا ضمناً للجوانب التي اشتملت عليهما كلتا الرحلتين فيما يتعلق بوحدات البنية النمطية، ومحاور البنية المحورية، وذلك عند حديثنا عن الملاحظات العامة علي الرحلتين، وفي تناولنا للجانب الوصفي أيضاً، مع ملاحظة أن دراستنا لا تركز علي الإطار العام للرحلتين، وإنما علي الجزء الخاص بصورة مصر فيهما، لكنه يمكننا أن نوجز ملامح البنية في الرحلتين في إطاريهما النمطي والمحوري . فيما يلي :

في رحلة ابن جبير :

" ابتدي بتقييدها يوم الجمعة الموفي ثلاثين لشهر شوال سنة ثمان وسبعين وخمس مائة علي متن البحر بمقابلة جبل شلير عرفنا الله السلامة بمنة ".

" وكان انفصال أحمد بن حسان ومحمد بن جبير من غرناطة، حرسها الله، للنية الحجازية، المباركة، قرنها الله بالتيسير والتسهيل وتعريف الصنع الجميل، أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال المذكور، وبموافقة الثالث لشهر فبراير الأعجمي، وكان الاختيار علي جيان لقضاء بعض الأسباب، ثم كان الخروج منها أول ساعة من يوم الأثنين التاسع عشر لشهر شوال المذكور وبموافقة اليوم الرابع عشر لشهر فبراير المذكور أيضاً "(١٧٩).

يقدم ابن جبير في بداية رحلته معلومات حول عناصر ثلاثة : [١٨٠]

- معلومات حول النص : وفيها يتحدث عن زمن بدء تدوين الرحلـــة، ومكانه، ثم نية التدوين التي تتوازى مع هدف الرحلة وهو " الحج "
- معلومات حول المرجع : وهي الأخبار المقدمة حول العالم، للإحالة على معرفة معلومات خارج النص فـــي ضـــوء أربـــع فضـــاءات مرجعية :
  - فضاء متحرك : مكان تدوين الرحلة (البحـــر مقـــابل جبـــل شـــلير بالأندلس) .
  - فضاء الانطلاق: غرناطة، مع الإشارة إلي الانفصال عن رفيق رحلته أحمد بن حسان .
  - فضاء الهدف: الحجاز للحج .
  - فضاء المرور: جيان بالأندلس لقضاء بعض حاجياته ثم الخروج منها.
- معلومات حول التخييل : وذلك بتنظيم السرد وبناء العالم التخييلي .

ويبدأ نص البناء الرحلي عند ابن بطوطة بقول ابن جزي "قال الشـــيخ أبو عبد الله : كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثـــــاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة، معتمداً حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، منفرداً عن رفيـــق آنس بصحبته، وركب أكون في جملته، الباعث علي النفس شـــديد العزائـــم، وشق إلي تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم، فحزمت أمري علي هجـــرة الأحباب من الإناث والذكور، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور "[١٨١] .

وتمدنا هذه المقدمة بالكثير من معلومات الإخبارية عن الرحلة وصاحبها، والتي تعد مفاتيح للنص الرحلي عند ابن بطوطة . ومن هذه المعلومات .

الحديث عن الذات (كان خروجي) صاحب الرحلة بنفسه مما يعد نوعاً من توثيق النص الرحلي، وإضفاء صفة التصديق عليه، ثم ذكر المكان " طنجة مسقط رأسي " والزمان أيضاً، إلي الحديث عن هدف الرحلة ونوعية النص " معتمداً حج بيت الله الحرام ... " رحلة حججية "، ثم العودة مرة أخرى للحديث عن الذات في خروجه وحيداً إلا من رفاقه في الحج، بعدما هجر أحبابه وأصحابه وفارق وطنه، وإضفاء نوع من التأثير علي القاريء يوحي بالمغامرة وتحمل المخاطر في سبيل الهدف الأكبر وهو " الحج " .

ومما سبق يتضح لنا أن المقدمة في الرحلتين بوصفها وحدة من البنية النمطية كانت بمثابة مفتاح أو كشاف للرحلتين، يضيء جوانب النص ويمهد للولوج داخله بما قدمته مقدمة الرحلة من معلومات مهمة وهي . التقديم الشخصي لصاحب الرحلة وزمان تدوين النص الرحلي ومكانه، ثم الهدف من الرحلة؛ ليبدأ الحديث بعد ذلك عن رحلة الذهاب لتحقيق هدف الرحلة .

ولما كان موضوع الدراسة هو الحديث عن صورة مصر فقد كان ذلك يعد جزءاً من رحلة الذهاب للرحالتين إلي تحقيق الهدف وهو الوصول إلي الأراضي الحجازية . وقد تناولنا جزئيات رحلة الذهاب بالتفصيل عند زيارة الرحالتين للأراضي المصرية . أما الوصول إلي الأراضي الحجازية لأداء فريضة الحج ثم رحلة العودة بعد ذلك . فإنه لا يدخل ضمن مجال الدراسة التي تحددت بالمكان وهو مصر .

ويري بعض الباحثين من أساتذتنا الأفاضل أن أبا بكر ابن العربــــي ت ٥٤٣هـــ الذي رحل من المشرق إلي الأندلس هو أول من وضـــع البنيــة الأولي لفن الرحلات وأن هذا الفن الأدبي قد بلغ ذروته من البراعـــة الفنيــة علي يد ابن جبير (١٨٢)

وتوضح نصوص رحلتي ابن جبير وابن بطوطة بعامة، والأجـــزاء التي اختصت منها بمصر بخاصة أهم السمات الفنية التي أسهمت بدورها في تقديم صورة مصر من خلال الرحلتين علي النحو التالي :

الألفاظ والأساليب :

استخدم ابن جبير المفردات السهلة المألوفة بلغة بسيطة يستطيع القارئ فهمها دون مشقة باستثناء بعض الكلمات التي تحتاج إلي شرح، وربما كانت مألوفة في عصر المؤلف، ومنها : البيلة الأنوار، الجلاَّب، المحارس، أحفل، العلوج، أفيح، المدرة [١٨٣]، وهو ما جعل د. حسين نصَّار محقق الرحلة يشرحها في هامش الكتاب، في الوقت الذي يأخذ عليه عدة مآخذ، منها : عبارته العامية التي لا ترضي عنها اللغة العربية الفصيحة ويرد ذلك إلي كتابة الرحلة علي صورة مذكرات ثم تنسيق هذه المذكرات فيما بعد علي يده أو يد أحد تلاميذه، ومنها أيضاً اختلال الضمائر التي لا تسير وفقاً للقواعد العربية، وإنما علي القواعد العامية ... ثم عدم ترابط العبارات في كثير من الأحيان [١٨٤] .

وقد وصف كراتشكوفسكي أسلوب ابن جبير في رحلته بأنه " يمتاز بالكثير من الحيوية وسهولة التعبير "[١٨٥] ، كذلك لاحظ د. عثمان موافي " أن ابن جبير لم يلتزم أسلوباً واحداً، في كتابة رحلته، ولكنه تردد بين نوعين من الأساليب : هما : الأسلوب المرسل أو المطلق . والأسلوب المقيد بقيود الصنعة الفنية "[١٨٦] ؛ كما لاحظ د. عثمان أيضاً أن أسلوبه يغلب عليه الإرسال والإطلاق، وخاصة في حالة السرد أو الحكاية، أما في مقدمات وصفه لبعض المواضع والمدن، فإن أسلوبه يغلب عليه الصنعة الفنية [١٨٧] .

ويحسب للدكتور عثمان موافي في دراسته التي أخلص لها عن ابن جبير، أنه استطاع أن يقيم علاقة وثيقة بين تأثر ابن جبير بثقافة عصره، وطريقة الكتابة السائدة فيه من ناحية ، واستخدامه للأسلوب المرسل من ناحية أخرى، فكما أفاد ابن جبير من ثقافة عصره وموهبته الفنية " فقد أفاد

كذلك، من أسلوب الفقهاء والمحدثين، وأصحاب النثر الديني في التعبير، ذلك الذي يتسم بالصدق في الرواية والأداء، وليس من الصدق، في الرواية، زخرفة الألفاظ، وتزويق العبارات، إنما النقل الأمين، والوضوح في التعبير، لذا جاء أسلوب صاحبنا، في أكثر ما يرويه، من أخبار مطلقاً غير مقيد بأي قيد من قيود الصنعة الفنية "(١٨٨) .

ومن الشواهد علي استخدام ابن جبير للأسلوب المرسل أو المطلق قوله عن مناقب صلاح الدين الأيوبي " ومن مفاخر هذا السلطان المزلفة من الله تعالي، وآثارها التي أبقاها ذكراً ميلاً للدين والدنيا : إزالته رسم المكس المضروب وظيفة علي الحجاج مدة دولة العبيديين . فكان الحجاج يلاقون من الضغط في استيدائها عنتاً مجحفاً، ويسامون فيها خطة خسف باهظة، وربما ورد منهم من لا فضل إليه علي نفقته، أولا نفقة عنده، فيلزم أداء الضريبة المعلومة، وكانت سبعة دنانير ونصف دينار من الدنانير المصرية، التي هي خمسة عشر ديناراً مؤمنية علي كل رأس، فيعجز عن ذلك، فيتناول بأليم العذاب " بعيذاب "، فكانت كاسمها مفتوحة العين "(١٨٩) .

أما اللون الثاني من أسلوب ابن جبير، وهو الأسلوب المقيَّد بالصنعة اللفظية فيظهر علي استحياء في وصفه لبعض المشاهد مثل قوله عن منار الإسكندرية مثلاً " يزاحم الجو سمواً وارتفاعاً، ينحصر عنه الوصف، وينحسر دونه الطرف، الخبر عنه يضيق والمشاهدة له تتسع "(١٩٠) ، وتكاد تخلو منه مدن مصر من الأسلوب الموشي بالصنعة اللفظية علي الرغم من ظهوره جلياً في الحديث عن مدن العراق والشام مثل بغداد وحماة ودمشق وغيرها (١٩١) . ولا أعرف لذلك سبباً يذكر .

أما اللغة في رحلة ابن بطوطة فتتميز بالسهولة والبساطة والوضوح بوجه عام، وهي أقرب إلي لغة الصحافة اليومية التي لا تكلف القاريء عناء البحث وراء معاني كلماتها؛ وبالتالي فإن أسلوب الرحلة يتصف بسلاسة السرد القصصي الذي يميل إلي تشويق القاريء وإقناعه ويستولي علي قلبه ويستحوذ علي مشاعره، ومع ذلك فقد جاءت عبارات الرحلة تخلو من السجع والجناس وأشكال الصناعة اللفظية والبيانية، وذلك باستثناء المقدمة والخاتمة وما ندر من أوصاف المدن .

ومن نموذج النوع الأول للأسلوب قوله عند وصوله إلي قرية تسمي قطيا في عصره وهي في طريق القاهرة تجاه الصالحية " وكان بها في عهد وصولي إليها عز الدين أستاذ الدار قماري، من خيار الأمراء . أضافني وأكرمني وأباح الجواز لمن كان معي . وبين يديه عبد الجليل المغربي الوقاف، وهو يعرف المغاربة وبلادهم، فيسأل من ورد منهم من أي البلاد هو، لئلا يلبس عليهم، فإن المغاربة لا يعترضون جوازهم علي قطياً "[١٩٢] ، أرأينا مدي سلاسة الأسلوب، وسهولة اللغة، ووضوح العبارة . وذلك يختلف عن اللون الآخر من الأسلوب المقيد بأشكال الصناعة اللفظية من ذلك ما جاء بالمقدمة التي كتبها ابن جزي " وكان ممن وفد علي بابها السامي، وتعدي أوشال البلاد إلي بحرها الطامي، الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق جوال الأرض ومخترق الأقاليم بالطول والعرض أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة وهو الذي طاف الأرض معتبراً وطوي الأمصار مختبراً، وباحث فرق الأمم، وسبر سير العرب والعجم..."[١٩٣] .

وهذه السمات التي اتصفت بها لغة الرحلة وعباراتها وأسلوبها، والمفارقة الواضحة بين أسلوب الرحلة بوجه عام، وأسلوب المقدمة والخاتمة ووصف المدن بوجه خاص، أرجعه الباحثون إلي إشكالية تدوين الرحلة التي أشرنا إليها من قبل، وإلي النتيجة التي مؤداها أن تدوين الرحلة كان مشاركة بين ابن بطوطة وابن جزي، الأمر الذي كان له أوضح الأثر علي منهج الرحلة وألفاظها وأسلوبها " فإن طريقة المشاركة في الإملاء والتدوين جعلت من الصعب الارتفاع بأسلوب الرحلة إلي النمط الجيد والتدوين المتكامل المترابط، فبدا اختلاط الأسلوبين واضحاً ... فلغة السرد القصصي التي يعرض فيها الرحالة أخباره وحكاياته، لغة قصصية بسيطة أميل ما تكون إلي لغة المحادثة العادية ... ولا غرابة في ذلك إذ لم يكن همه عرض قدرة لغوية أو ملكة أدبية، وإنما همه أن يقص ما لديه من حكايات ومشاهدات"[١٩٤] وذلك علي عكس ما جاء به أسلوب ابن جزي مدون الرحلة والذي حرص أن يشير إلي ذلك في مقدمة الرحلة التي كتبها بقوله : " ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد التي قصدها، موضحة للمناحي التي اعتمدها، وربما أوردت لفظة علي وضعه، فلم أخل بأصله ولا فرعه "[١٩٥] .

ومن الظواهر اللغوية والأسلوبية التي تتصف بها الرحلتان أيضاً :

– استخدام بعض التعبيرات الدينية، والجمل الدعائية والحمدية، وهي تأتي في رحلة ابن جبير مصاحبة لذكر الشهر، أو بداية السفر، وعند الوصول، ومشاهدة المدن، وفي الوقت الذي يشتد فيه الكرب أو تقضي فيه الحاجات، وعند رؤية مشهد من المشاهد، وعند الدعاء علي العدو . ومن الأمثلة الدالة علي ذلك قوله :

" شهر ذي الحجة ... عرّفنا الله ببركته ويمنه " ص ٢٩

" كان الانفصال عنها علي بركة الله " ص ٣٥

" يسَّر الله علينا في عبور البحر " ص ٢٢ ، ٢٣

" طرأ علينا ... هول عظيم، عصم الله ص ٢٤

منه بريح أرسلها الله تعالي في الحين... والحمد لله علي ذلك"

" فلمَّا أسفر الصبح نشر الله ورحمته " ص ٢٦

كان إرساؤنا بمرسي البلد ونزولنا إثر ذلك والله المستعان ص ٢٨

وهو سبحانه المسئول تتميم النعمة علينا .

وقوله عن الروم وأسرهم لبعض المسلمين . " وكان ذلك عند وصول العدو - دمره الله - بهم من سواحل البحر " ص ٢٥ وتبدو هذه التعبيرات الدينية أيضاً في رحلة ابن بطوطة، مرتبطة بالدعاء لبعض الأشخاص، وهم الغالب من الأمراء والسلاطين، وفي وصف أعمالهم بالجهاد، ووصف الأعداء بالكفَّار "وكان ارتحالي في أيام أمير المؤمنين، وناصر الدين، المجاهد في سبيل رب العالمين ... أبو سعيد بن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين الذي فل حد الشرك صدق عزائمه، وأطفأت نار الكفر جداول صارمه، وفتكت بعباد الصليب كتائبه " ص ٣١ ، وقوله " جدَّد الله عليهم رضوانه ... ، وجزاهم أفضل الجزاء عن الإسلام والمسلمين " ص ٣٢ ، وفي ذكره لأيات القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، فعند حديثه عن النيل يقول : (ليس في الأرض نهر يسمي بحراً غيره . قال الله تعالي " فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ") ص ٥٨ ويقول : وفي الحديث أيضاً " النيل والفرات وسيحون وجيحون كل من أنهار الجنة " ص ٥٨ ، وفي اهتمامه بالعلماء ورجال الدين ومشايخ الصوفيه وذكر كراماتهم ووصف الشيوخ بأنهم من الصالحين والدعاء لهم . " وبقرافة مصر من قبور العلماء والصالحين ما لا يضبطه الحصر ... ومنها تربة السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور بن

علي بن الحسين بن علي عليهم السلام. وكانت مجابة الدعوة مجتـــهدة فـــي العبادة " ص ٥٨ ، وفي استخارة الله عند القيام بعمل، وتقديم المشـــيئة عنـــد الحديث عن شيء مستقبلاً. " فاستخرت الله عز وجل في ذلـــك " ص ٣٢ ، " وسيذكر ذلك كله في مواضعه إن شاء الله " ص ٥٩ .

- ومن هذه الظواهر كثرة استخدام الجمل الفعلية الدالة علي الحركـــة، والمتصلة بضميري الرفع (تاء الفاعل، ناء الدالة علـــي الفـــاعلين) وذلك ما يتفق وطبيعة الرحلة، وحديث الرحالة عـــن نفســـه وعـــن الآخرين في السفر . فنلحظ في رحلة ابن جبـــير أفعـــال " فارقنـــا ، استقبلنا ، وصلنا ، أضاءت الشمس، بكرنا ، شاهدنا ، عاينا " وفـــي رحلة ابن بطوطة أفعال "قصدت، ســـافرت ، خرجـــت ، ركبـــت ، وصلت " .

- تأتي الجملة الفعلية دائماً مصدرة بفعل كان أو قد كان أو ثم المسبوقة بفعل كان أو فلما، ففي رحلة ابن جبير قوله : " كان انفصالنا عنـــها، كان دخولنا فيها إثر صلاة ... ، وقد كان خروجي من طنجة، وكـــان أمير الإسكندرية، وكنت سمعت، وكان سلطان مصر، ثم كان سفري من مصر " .

- استخدام الجمل الاسمية القصيرة والمسبوقة بحروف الجر بمفردها أو مع واو العطف أحياناً. من ذلك قول ابن جبير في رحلتـــه : " وفـــي صبيحة يوم، ومن الغريب في أحوال هذا البلد، ومـــن مفـــاخر هـــذا السلطان، ولأهل مصر في شأن هذه القنطرة إنذار " ، وفي رحلة ابن

بطوطة قوله : " ومن غرائب هذه المدينة، ومن علماء الإسكندرية، ومن هذه المدينة، ومن أمراء مصر، من منازلها قطيا " .

- استخدام أفعل التفضيل عند ابن جبير، وصيغة المبالغة "فعيل" عند ابن بطوطة، وقد أثر ذلك علي عدم دقة الأحكام والميل إلي الخطابية والتعميم في بعض الأحيان؛ وقد جاء ذلك عند الحديث عن أعمال الأشخاص أو كراماتهم، أو الانبهار برؤية بعض المشاهد، أو التعرض لبعض المصاعب والأخطار، أو موقف الشكوى فعند ابن جبير تتكرر أفعل التفضيل في قوله : " أحسن، أحفل، أشرف، أشنع، أغتق، أعجب، أعظم، أفيح، أقبح " وصيغة فعيل في رحلة ابن بطوطة ومنها : " شهير، خبير، خطير، عجيبة، عنيفة، كبيرة " .

- وأخيرا الاستطراد في أسلوب الحكي وقص بعض القصص، وهو يقل في رحلة ابن جبير ويأتي في الحديث عن صعوبات الرحلة في قوله " عصفت علينا الريح جاء معها مطر، ترسله بقوة، كأنه شآبيب سهام، فعظم الخطب، واشتد الكرب وأربدت الأفاق سوادا، واستشرت الريح والمطر عصوفا "(١٩٦) وفي الحديث عن أعمال صلاح الدين الأيوبي، وهي كثيرة (١٩٧) ، وفي خروج بعض نصارى الشرق في الإسكندرية ومعاملتهم للحجيج معاملة سيئة (١٩٨) ، وفي الحديث عن رجال الجمارك (١٩٩) ، وعن عيذاب وأهلها (٢٠٠) .

ويأتي الاستطراد في رحلة ابن بطوطة عن خلال السرد القصصي المصاحب للحوار أحيانا مع الشخصية التي يلتقي بها الرحالة، والتي تتنوع بين حاكم المدينة التي يزورها، أو الشيخ الذي يقابله، أو الصوفي الذي

يتحدث عن كرامته، أو سرده لبعض الجوانب التاريخية التي تفيد في معرفة سبب تسميته المدينة بذلك، مثل حديثه الطويل عن جانب منّ تاريخ مدينة " المنيا " وسبب تسميتها بمنية ابن الخصيب، والذي أشرنا إليه في موضعه؛ ومن ذلك أيضاً ما يذكره عن بعض الأحداث التي حدثت لبعض المدن بعد زيارته لها وسفره إلي الحجاز، ومن هذه المدن " مدينة الإسكندرية " التي يحدثنا عنها بقوله: " ومما جري بمدينة الإسكندرية سنة سبع وعشرين، وبلغنا خبر ذلك بمكة شرفها الله، إنه وقع بين المسلمين وتجار النصاري مشاجرة، وكان والي الإسكندرية رجلاً يعرف بالكركي فذهب إلي حماية الروم، وأمر المسلمين فحضروا بين فصلي باب المدينة، وأغلق دونهم الأبواب نكالاً لهم، فأنكر الناس ذلك وأعظموه، وكسروا الباب، وثاروا إلي منزل الوالي . فتحصن منهم وقاتلهم من أعلاه، وطيّر الحمام بالخبر إلي الملك الناصر، فبعث أميراً يعرف بالجمالي، ثم اتبعه أميراً يعرف بطوغان، جباراً قاسي القلب، متهماً في دينه، يقال إنه يعبد الشمس . فدخلا الإسكندرية، وقبضا علي كبار أهلها وأعيان التجار بها، كأولاد الكويك وسواهم، وأخذ منهم الأموال الطائلة . وجعلت في عنق القاضي .. ثم أن الأميرين قتلا من أهل المدينة ستة وثلاثين رجلاً، وجعلوا كل رجل قطعتين وصلبوهم صفين، وذلك في يوم جمعة . وخرج الناس علي عادتهم بعد الصلاة لزيارة القبور، وشاهدوا مصارع القوم، فعظمت حسرتهم، وتضاعفت أحزانهم "(٢٠١) .

الخاتمة

بعد أن طوّفنا مع ابن جبير وابن بطوطة فى رحلتيهما لأرض مصر العريقة، حاولنا أن نرصد صورة مصرعندهما، وفى إطار المعالجة الفنية لأدب الرحلة ، يمكن القول بأننا قد توصلنا من خلال هذه الدراسة التى وازنت بين الرحلتين إلى بعض النتائج المهمة التالية :

أولاً- إن الحديث عن صورة مصر من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة يعد وثيقة مهمة، وشهادة حقيقية على عصرهما .

ثانياً- اهتم ابن جبير ببعض الجوانب الحضارية فى مصر ، والمتمثلة فى الأرض والعمران والآثار ، إلى جانب إشادته بصلاح الدين وأعماله للمصريين والمغاربة ؛ بينما اهتم ابن بطوطة بالناس والعلماء والأولياء وحياة الصوفية وكراماتهم، وبعض الجوانب الشعبية للمصريين .

ثالثاً- حفلت كل من الإسكندرية والقاهرة باهتمام خاص، ومساحة أكبر فى الحديث عنهما فى الرحلتين، بينما حفلت بعض مدن الوجه البحري والصعيد بنصيب أقل، وذلك بالقياس لبعض المدن الأخرى التى كان يمر عليها الرحالتان مروراً سريعاً .

رابعاً- إن من أهم المآخذ على الرحلتين أنهما يخلوان من وصف الحياة الأدبية التى كانت مزدهرة فى مصر فى عصرهما .

خامساً- أوضحت الدراسة أن تدوين الرحلتين ينتمى إلى البنية المحورية فى إطار البنية النمطية .

سادساً- استخدم كل من ابن جبير وابن بطوطة فى الكتابة المفردات السهلة والمألوفة التى يستطيع القارئ فهمها بدون مشقة .

سابعاً- أن ابن جبير قد أفاد فى كتابة رحلته من ثقافة عصره وموهبته الفنية من ناحية، ومن أسلوب الفقهاء والمحدثين وأصحاب النثر الديني فى التعبير من ناحية أخرى، فجاء أسلوبه يجمع بين الأسلوب المقيَّد والأسلوب المرسل؛ بينما جاء أسلوب رحلة ابن بطوطة يخلو من أساليب الصناعة اللفظية باستثناء المقدمة والخاتمة وما ندر من أوصاف المدن.

ثامناً- من الظواهر اللغوية والأسلوبية التى تتصف بها الرحلتان: استخدام بعض التعبيرات الدينية، وكثرة استخدام الجمل الفعلية الدالة على الحركة، والمتصلة بضمائر الرفع والمصدَّرة بفعل كان، واستخدام الجمل الاسمية القصيرة المسبوقة بحرف جر، ثم الاستطراد فى أسلوب الحكى القصصي .

الهوامش و التعليقات

(١) د. سيد حامد النسَّاج، مشوار كتب الرحلة قديماً وحديثاً، ص٣٤ .

(٢) انظر في ترجمة ابن جبير ورحلته، ابن سعيد المغربي، المغرب، جـ٢ /٣٨٤، لسان الدين الخطيب، الإحاطة جـ٢/٢٣٠، دائرة المعارف الإسلامية مادة ابن جبير، د. شوقي ضيف الرحلات ص ٧٠ ـ ٩٤ .

(٣) انظر : لسان الدين الخطيب، الإحاطة، جـ٢/٢٣٢ .

(٤) د.شوقي ضيف : الرحلات ص ٧١ .

(٥) ابن جبير : الرحلة، تحقيق د . حسين نصَّار، المقدمة، ص ١٨ .

(٦) أشاد بالرحلة من العرب: المقَّري، وابن الخطيب الأندلسي، ونفيس أحمد هندي والدكتور نقولا زيادة، والدكتور محمد زغلول سلام، ومن المستشرقين Pons Boig Wes وحققها من المستشرقين وليم رايت William Wright والمستشرق الإيطالي أماري Amari، ومن العرب د حسين نصَّار، ومحمد زينهم، وترجمها المستشرق الإيطالي كاستينو شيابرلى clesestino schiopa relli وطبعت الرحلة فى مصر عدة طبعات من منتصف القرن الماضى وحتى الآن . انظر: ابن جبير، الرحلة، تحقيق د. حسين نصَّار، المقدمة .

(٧) ابن جبير، السابق، المقدمة، ص ١٤ .

(٨) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة المسماة "تحفة النظَّار فى غرائب الأمصار" شرحه وكتب هوامشه طلال حرب، المقدمة، وانظر د. شوقى ضيف الرحلات، الفصل الخامس ٩٥ ـ ٩٨ .

(٩) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، مقدمة ابن جزى ص ٢٦ .

(١٠) نفسه : ص ٧٠٧ .

(١١) نفسه: ص ١٠، وانظر: د. شوقي ضيف، الرحلات ص ٩٨ .

(١٢) د. عثمان موافى: لون من أدب الرحلات، ص٢٥ .

(١٣) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، طلال حرب، المقدمة، ص ١٠ .

(١٤) نفسه: ص ٥٥ .

(١٥) ابن جبير: رحلة ابن جبير، د. حسين نصار، المقدمة ص ١٢ .

(١٦) نقولا زيادة، الجغرافيا والرحلات عند العرب، ص ١٨٢ .

(١٧) د. حسني محمود، أدب الرحلة عند العرب، ص ٢٦ .

(١٨) د. عثمان موافى: السابق، ص٢٥ .

(١٩) نفسه: ص ٢٥ .

(٢٠) ابن جبير: الرحلة، ص٣٥ .

(٢١) نفسه: ص ٣٨ .

(٢٢) يذكر ابن جبير في زيارته لمشاهد الأئمة العلماء الزهاد رضى الله عنهم جميعاً كرامات بعض المشايخ التى اشتهروا بها ومن ذلك: مشهد الرجل الصالح الزاهد المعروف بصاحب الإبريق، وقصته عجيبة فى الكرامة "دون أن يذكر القصة"، قبر الناطق الذى سمع عند وضعه فى لحده يقول: "اللهم أنزلنى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين" سورة المؤمنين – آية ٢٩، ومشهد الصامت الذى يحكى عنه أنه لم يتكلم أربعين سنة، وهكذا.أنظر الرحلة: ص ص٤٤ – ٤٥

(٢٣) ابن بطوطة: الرحلة، ص ٥٧ .

(٢٤) نفسه: ص ٦٤ .

(٢٥) نفسه: ص ٤١ .

(٢٦) نفسه: ص ٦٧ .

(٢٧) نفسه: ص ٦٧ .

(٢٨) نفسه: ص ٦٧ .

(٢٩) ابن جبير: الرحلة، ص ٧٥ .

(٣٠) نفسه: ص ٧٤، ٧٥ .

(٣١) نفسه: ص ٧٧ .

(٣٢) نفسه: ص ٣٦ .

(٣٣) نفسه: ص ٥٢ .

(٣٤) نفسه: ص ٦٧ – ٦٨ .

(٣٥) نفسه: ص ٤٥ – ٤٦ .

(٣٦) ابن بطوطة: الرحلة: ص ٤٦ .

(٣٧) نفسه: ص ٤٦ .

(٣٨) انظر ابن بطوطة: المصدر نفسه، ص ٥١ .

(٣٩) ابن بطوطة: المصدر نفسه

(٤٠) نفسه: ص ٦٥ .

(٤١) نفسه: ص ٦٦ .

(٤٢) نفسه: ص ٥٥ – ٥٦ .

(٤٣) نفسه: ص ٦٦٧ – ٦٦٨ .

(٤٤) ابن جبير: الرحلة ص٢٩ .

(٤٥) أدب الرحلة عند العرب: السابق ص ٤٦ .

(٤٦) ابن بطوطة: انظر على سبيل المثال: مقابلة ابن بطوطة للشيخ عبد الله المرشدي بمدينة فوا القريبة من الإسكندرية، وتفسير الشيخ لرؤيا ابن بطوطة ص ٤٧ .

(٤٧) نقولا زيادة: الجغرافيا والرحلات عند العرب : ص ١٨٣ .

(٤٨) د. شعيب حليفي: الرحلة فى الأدب العربي ص ٢٨٩ .

(٤٩) د. عثمان موافى: لون من أدب الرحلات السابق ص ١٨ .

(٥٠) نفسه: ص ١٨ .

(٥١) ابن جبير: الرحلة: ص ٢٩ ـ ٣٠ .

(٥٢) ابن جبير: نفسه ص ٢٩ ـ ٣٠ .

(٥٣) د. شوقى ضيف: الرحلات، ص ٧٢ .

(٥٤) ابن جبير: الرحلة، ص ٣٠ .

(٥٥) نفسه: ص ٣١ .

(٥٦) نفسه: ص ٣١ .

(٥٧) نفسه: ص ٣١ .

(٥٨) نفسه: ص ٣٢ .

(٥٩) نفسه: ص ٣٢ .

(٦٠) نفسه: ص ٣٢ .

(٦١) نفسه: ص ٣٣ .

(٦٢) نفسه: ص ٣٥ .

(٦٣) نفسه: ص ٣٥ .

(٦٤) ابن بطوطة: الرحلة، ص ٣٩ .

(٦٥) نفسه: ص ٣٩ .

(٦٦) نفسه: ص ٣٩ .

(٦٧) ابن بطوطة: الرحلة، ص ٣٩ .

(٦٨) نفسه: ص ص ٣٩ ـ ٤٠ .

(٦٩) نفسه: ص ٤٠ .

(٧٠) نفسه: ص ٤٠ .

(٧١) نفسه: ص ٤٠ .

(٧٢) نفسه: ص ٤١ .

(٧٣) نفسه: ص ٤٢ .

(٧٤) نفسه: ص ٤٢ .

(٧٥) نفسه: ص ٤٢ راجع حديثه عن الشيخ ياقوت الحبشي من تلاميذ أبى العباس المرسي .

(٧٦) نفسه: ص ٤٣ .

(٧٧) نفسه: ص ٤٤ .

(٧٨) د. حسين نصار: رحلة ابن جبير، مقال بمجلة تراث الإنسانية، وصدر ضمن إصدارات الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ سلسلة مكتبة الأسرة ١٩٩٦م ص ٢٢ .

(٧٩) ابن جبير: الرحلة، ص ص ٣٥ ـ ٣٦ .

(٨٠) نفسه: ص ٣٦ .

(٨١) نفسه: ص ٣٦ .

(٨٢) رحلة ابن بطوطة : نفسه، ص ٨١ .

(٨٣) انظر رحلة ابن بطوطة، ص ٨١ .

(٨٤) ابن بطوطة: الرحلة، ص ٤٨ .

(٨٥) نفسه: ص ٤٨ .

(٨٦) نفسه: ص ٤٨ .

(٨٧) نفسه: ص ٥١ .

(٨٨) نفسه: ص ٥١ .

(٨٩) نفسه: ص ٥١ .

(٩٠) نفسه: ص ٥٢ .

(٩١) نفسه: ص ٥٢ .

(٩٢) د. حسنى محمود حسين: أدب الرحلة، ص ٢١ .

(٩٣) ابن جبير: الرحلة ص ٩٢ .

(٩٤) ابن جبير: نفسه ص ٩٣ .

(٩٥) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٥٧ .

(٩٦) ابن جبير : الرحلة ص ص ٥٠ ـ ٥١ .

(٩٧) نفسه : ص ٥١ .

(٩٨) ابن بطوطة : الرحلة، ص ٥٩ .

(٩٩) نفسه : ص ٥٩ ـ ٦٠ .

(١٠٠) نفسه : ص ٦٠ .

(١٠١) ابن جبير : الرحلة، ص ص ٤٦ ـ ٤٧ .

(١٠٢) نفسه : راجـع الرحلـة ، ص ٣٠ ، ٣٢ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٦٤ ، ٦٥ .

(١٠٣) نفسه : ص ٤٩ .

(١٠٤) نفسه : ص ٥٣ ـ ٥٤ .

(١٠٥) نفسه : ص ٥٥ .

(١٠٦) نفسه : ص ٨٦ .

(١٠٧) ابن بطوطة : الرحلة ص ٥٥ .

(١٠٨) نفسه : ص ٥٦ .

(١٠٩) نفسه : ص ٥٨ .

(١١٠) نفسه : ص ٥٨ ، القصص آية ٧ .

(١١١) نفسه : ص ٥٩ .

(١١٢) نفسه : ص ٥٨ .

(١١٣) نفسه : ص ص ٥٨ ـ ٥٩ .

(١١٤) نفسه : ص ٦١ .

(١١٥) نفسه : ص ٦١ .

(١١٦) نفسه : ص ٦٢ .

(١١٧) نفسه : ص ٦٢ .

(١١٨) نفسه : ص ٦٤ .

(١١٩) د. شوقي ضيف : الرحلات ص ٩٨ .

(١٢٠) د. حسني محمود : أدب الرحلة ص ٤٦ .

(١٢١) نفسه : ص ٤٦ .

(١٢٢) نفسه : ص ٤٧ .

(١٢٣) ابن جبير : الرحلة ص ٥٦ ـ ٥٧ .

(١٢٤) نفسه : ص ٥٦ .

(١٢٥) نفسه : ص ٥٦ .

(١٢٦) نفسه : ص ٥٦ .

(١٢٧) نفسه : ص ٥٧ .

(١٢٨) نفسه : ص ص ٦٧ ـ ٦٨ .

(١٢٩) نفسه : ص ٦٢ .

(١٣٠) نفسه : ص ٦٤ .

(١٣١) البربة: كلمة مصرية قديمة معناها المقبرة .

انظر د. حسين نصار محقق الرحلة . ابن جبير، الرحلة، ص ٦٢ .

(١٣٢) ابن جبير : الرحلة ص ص ٦١ ـ ٦٤ .

(١٣٣) نفسه : ص ٦٤ .

(١٣٤) ابن بطوطة : الرحلة، ص ٦٩ .

(١٣٥) نفسه : ص ٦٩ .

(١٣٦) نفسه : ص ٦٩ .

(١٣٧) نفسه : ص ٦٥ .

(١٣٨) نفسه : ص ٦٥ .

(١٣٩) نفسه : ص ٦٧ ـ ٦٨ .

(١٤٠) نفسه : ص ٧٠ .

(١٤١) نفسه : ص ٦٦ .

(١٤٢) نفسه : ص ٦٦ ـ ٦٧ .

(١٤٣) نفسه : ص ٦٧ .

(١٤٤) ابن جبير : الرحلة، ص ٧٤ .

(١٤٥) نفسه : ص ٧٤ .

(١٤٦) نفسه : ص ٧٩ .

(١٤٧) نفسه : ص ٧٦ .

(١٤٨) نفسه : ص ٧٥ .

(١٤٩) نفسه : ص ٧٨ .

(١٥٠) ابن جبير : الرحلة، ص ٧٤ .

(١٥١) نفسه : ص ٧٦ .

(١٥٢) نفسه : ص ٧٧ .

(١٥٣) نفسه : ص ٧٨ .

(١٥٤) نفسه : ص ٧٩ .

(١٥٥) نفسه : ص ٧١ .

(١٥٦) نفسه : ص ٧٢ .

(١٥٧) نفسه : الصفحة نفسها .

(١٥٨) ابن بطوطة : الرحلة ص ٧١ .

(١٥٩) نفسه : الصفحة نفسها .

(١٦٠) نفسه : ص ص ٧١ – ٧٢.

(١٦١) د. ناصر عبد الرازق الموافي : الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري : السابق : راجع الفصل المعنّون بعنوان الرحلة المفهوم ص ٣٨ ـ ٤٧ .

(١٦٢) د. سيد حامد النساج: أدب الرحلات في حياتنا الثقافية . مجلة العربي . الكويت يناير ١٩٨٧ ، ص ١٣٣ .

(١٦٣) أفدنا في معالجتنا لموضوع الشكل في الرحلتين من معالجة د. ناصر عبد الرازق لموضوع الخصائص المميزة للشكل في الرحلة بوجه عام في كتابه " الرحلة في الأدب العربي ص ٥٩ ـ ٦٠ .

(١٦٤) د. سيد حامد النساج : مشوار كتب الرحلة ص ٣٤ .

(١٦٥) د. ناصر عبد الرازق : نفسه : ص ٦٠ .

(١٦٦) نفسه :ص ص ٦٠ ـ ٦١ .

(١٦٧) نفسه : راجع هذه المناهج بالتفصيل من حيث استخدامها ومميزاتها وعيوبها بعنوان " مناهج التدوين " ص ص ٦٣ ـ ٦٧ .

(١٦٨) ابن جبير : الرحلة ص ٢٧ .

(١٦٩) نفسه : ص ٢٨ .

(١٧٠) فؤاد قنديل : أدب الرحلة في التراث العربي . ص ٤٩٣ .

(١٧١) وردت هذه الافتراضات والتساؤلات في معظم الكتب التي تناولت رحلة ابن بطوطة بالدراسة وإن كان أكثر الكتب تناولا لها كتاب د. حسني محمود حسين " أدب الرحلة " في صفحات ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ .

(١٧٢) ابن بطوطة : الرحلة ص ٢٦ .

(١٧٣) نفسه : ص ٢٦ .

(١٧٤) نفسه : ص ٧٠٧ .

(١٧٥) انظر د. ناصر عبد الرازق، المرجع السابق موضوع البنية وأنواعها وأهم اتجاهاتها ص ص ٧١ ـ ٧٥ .

(١٧٦) نفسه : راجع هذه الأنواع بالتفصيل في الصفحات نفسها .

(١٧٧) نفسه : ص ٧١ .

(١٧٨) نفسه : ص ٧٢ ـ ٧٣ .

(١٧٩) ابن جبير : الرحلة ص ٢١ ـ ٢٢ .

(١٨٠) انظر د. شعيب حليفي : الرحلة في الأدب العربي ص ٢٣٠ ـ ٣٠٤

(١٨١) ابن بطوطة : الرحلة ص ٣١ .

(١٨٢) انظر : د. عثمان موافي، لون من أدب الرحلات ص ٩ .

(١٨٣) وردت هذه الكلمات في الأجزاء الخاصة بمصر ضمن رحلة ابن جبير وهي تعني ما يلي : البيلة : حوض النافورة ص ٥١ ،الأتوار: جمع تور وهو الشمعدان ص ٢٣٨، الجلاب : المراكب، والمحارس: جمع محرس وهو مأوي مخصص للدارسين والزهاد والمسافرين والفقراء ص ٣٢، أحفل : أكثر زحاما ، العلوج : وهو الرجل الضخم من العجم ص ٤٧، أفيح : أوسع ص ٣٧، المدرة : المدينة أو الحاضرة ص ٦١ .

(١٨٤)انظر : رحلة ابن جبير : المقدمة د. حسين نصار .

(١٨٥) اغناطيوس كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي . قسم ١ ص ٣٠١ .

(١٨٦) د. عثمان موافي : المرجع السابق ص ٢٨ .

(١٨٧) المرجع نفسه : ص ٣ .

(١٨٨) المرجع نفسه : ص ٣٥ .

(١٨٩) ابن جبير : الرحلة ص ص ٥٣ ـ ٥٤ .

(١٩٠) نفسه : ص ٣١ .

(١٩١) المصدر نفسه، راجع صفحات من ص ٣١٠ ـ ٣٢٦ في وصفه لمدن حران، ومنبج وبزاعه، وحماة، ودمشق وكثير من مدن العراق وسوريا .

(١٩٢) ابن بطوطة الرحلة : ص ٧٢ .

(١٩٣) نفسه : ص ٢٥ ـ ٢٦ .

(١٩٤) د. حسني محمود : أدب الرحلة ص ٤٨ .

(١٩٥) ابن بطوطة : الرحلة ص ٢٦ .

(١٩٦) ابن جبير: الرحلة : ص ٢٥ ـ ٢٦ .

(١٩٧) نفسه : انظر كشاف الرحلة ص ٤٧٤ .

(١٩٨) نفسه : ص ص ٥٩ – ٦٠ .

(١٩٩) نفسه : راجع صفحات الرحلة، ص ٥٩ ، ٣٠ .

(٢٠٠) نفسه : راجع صفحات الرحلة، من ص ٧٠ – ٧٩ .

(٢٠١) ابن بطوطة : الرحلة ص ٤٣ – ٤٤ .

ثبت المصادر والمراجع

ابن بطوطة :

١- رحلة ابن بطوطة المسماه " تحفة النظار في غرائب الأمصار " شرحه وكتب هوامشه طلال حرب، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان الطبعة الأولي ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

ابن جبير :

٢- "رحلة ابن جبير " في مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية، عصر الحروب الصليبية - تحقيق د. حسين نصار - مكتبة مصر ١٩٩٢ م .

ابن سعيد المغربي :

٣- المغرب في حلي المغرب - حققه وعلق عليه د. شوقي ضيف - دار المعارف ١٩٨٠ م .

إحسان عباس :

٤- تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين- دار الشروق للنشر والتوزيع - عمان " الأردن " ١٩٩٧ م .

أسين بلاثيوس :

٥- ابن عربي حياته ومذهبه - ترجمة عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات الكويت - دار القلم بيروت لبنان - ١٩٧٩م .

أغناطيوس كراتشكوفسكي :

٦- تاريخ الأدب الجغرافي العربي - ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم - لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٥ م.

د. حسنى محمود حسين :

٧- أدب الرحلات عند العرب - دار الأندلس - الطبعة الثانية ١٩٨٣ م .

د. حسين نصار :

٨- رحلة ابن جبير، مقال تراث الإنسانية، ونشر ضمن إصدارات الهيئة العامة للكتاب - سلسلة مكتبة الأسرة ١٩٩٦ م.

د. سيد حامد النساج :

٩- رحلة التراث العربي - دار المعارف - الطبعة الخامسة - ١٩٩٤ م .

١٠- مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا - مكتبة دار غريب ١٩٧٧ م .

١١- مقال بعنوان " أدب الرحلات في حياتنا الثقافية " مجلة العربي . الكويت يناير ١٩٨٧ م .

د. شعيب حليفي :

١٢- الرحلة في الأدب العربي - التجنس، آليات الكتابة - خطاب المتخيل - الهيئة العامة لقصور الثقافية - سلسلة كتابات نقدية - العدد ١٢١ أبريل ٢٠٠٢ م .

د. شوقي ضيف :

١٣- الرحلات – دار المعارف – الطبعة الرابعة ١٩٨٧م.

د. عثمان موافي :

١٤- لون من أدب الرحلات – مقال منشور في كليـــة الآداب – جامعة الإسكندرية ١٩٧٢ م .

فؤاد قنديل :

١٥- أدب الرحلة في التراث العربي – مكتبــة الــدار العربيــة للكتاب ٢٠٠٢ م .

لسان الدين الخطيب :

١٦- الإحاطة في أخبار غرناطة – الناشـــر مكتبـــة الخـــانجي بالقاهرة الطبعة الثانية – ١٩٧٣ م .

المقري :

١٧- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب – حققه د. إحسان عباس – دار صادر بيروت ١٩٦٨ م .

د. ناصر عبد الرازق الموافي :

١٨- الرحلة في الأدب العربي – دار الوفاء للطباعـــة والنشـــر والتوزيع ١٩٩٥ م .

نقولا زيادة :

١٩- الجغرافية والرحلات عند العرب – الأهلية للنشر والتوزيع بيروت – ١٩٨٢ م .

الفهرس

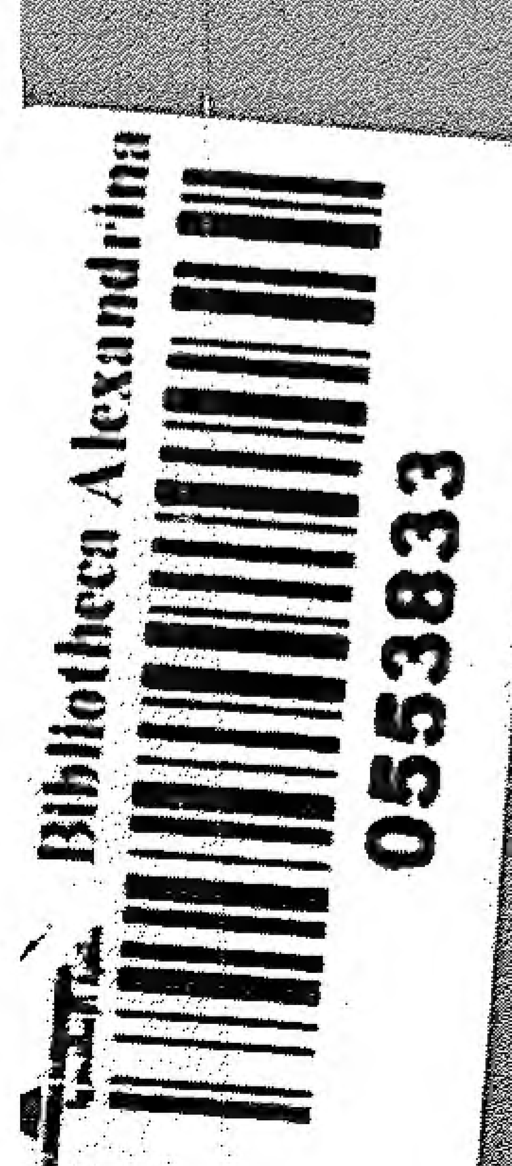
صورة مصر

عند رحالة بلاد المغرب و الأندلس

من خلال رحلتى ابن جبير وابن بطوطة

حظى موضوع الرحلة في الدراسات الأدبية والنقدية بالعديد من المؤلفات التي ألفت منذ منتصف القرن الماضي وحتى الآن وثمة دوافع كثيرة ومتنوعة كانت وراء احتفال العرب والمسلمين بالرحلة يرجع بعضها إلى أسباب ذاتية من أهمها الحج والتجارة وطلب العلم والتفقه في الدين...إلخ . وكانت معظم رحلات العرب والمسلمين تتجه من المشرق إلى المغرب أو العكس وكان الغرض الديني من أهم أغراض الوافدين من المغاربة والأندلسيين بصفة خاصة في التوجه إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج وكانت مصر في طريق هؤلاء الوافدين يقطعون المسافة من بلادهم إليها براً أو بحراً وقد أتاح لهم ذلك التعرف على مصر وأهلها وهذه الصورة التي رسمها هؤلاء الوافدين يحاول المؤلف في هذه الدراسة توضيحها وإبرازها للقارئ .

الناشر،،،


Bibliotheca Alexandrina
05553833